NAHIL NAFEZ AL-SHARAFI

رواية
Novel

نهيل نافذ الشرافي

حلم العودة

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والترجمة

حلم العودة

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
٢٠٢١م - ١٤٤٢هـ

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

غزة - فلسطين - شارع الوحدة ت: 97282825688+
شارع الثلاثيني ت: 97282824152+
جوال: 9720599732212+
Samir@mansour.ps
samirmansourbookshop

الشرافي، نهيل
حلم العودة / نهيل الشرافي - غزة: مكتبة سمير منصور، 2021
(176) ص: مقاس 14 × 20
تم إعداد بيانات الفهرسة في مكتبة وزارة الثقافة العامة - فلسطين

لا يجوز نقل أو نسخ أي شيء من مادة الكتاب
إلا بعد الحصول على إذن خطي من الناشر

رقم الإيداع: 1558 / 2021 الترقيم الدولي: 978 - 9950 - 04 - 323 - 7

نهيل الشرافي

مكتبة 1243

حلم العودة

رواية

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى بلدتي الأصلية

«هربيا»

التي انتميتُ لها وعشقتُها

ولم أرها بعد.

المقدمة:

مكتبة .. سر من قرأ

«من الجميل أن نكتب أحلامنا، حتى وإن كانت بعيدة جداً، فربما يأتي يوم ما ونكتب أنها تحققت».

في روايتي الثانية التي سميتها «حُلم العودة»، أعرض لكم قضية مهمة وحساسة تلامس واقع المرأة عامة وواقع المرأة الفلسطينية خاصة، ونظرة المجتمع الظالمة نحوها، وحكمه عليها بالنقص، طالما أنها خسرت شيئاً ما - حتى وإن كان دون إرادة منها - فلا يرحمها مجتمعها، ويحكم عليها بالإعدام وهي على قيد الحياة، ويسلبها أبسط حقوقها، وينسى أنها إنسانة تمتلك الكثير من الأحاسيس والمشاعر، والتي رغم كل تلك النظرات إلا أنها تكافح، وتخرج للمجتمع من أجل أن توصل رسالة قوية بأنها تستحق الحياة رغم قرارتكم الجائرة، فتخرج وتناضل وتصل وتتحمل ما لا يستطيع تحمله ألف رجل.

كما عرضتُ ذلك الحلم «حُلم العودة»، الذي يراودني ويراود كل فلسطيني خرج من أرضه قسراً وهرباً من الحرب والموت، وسار

بين الطرقات والشوارع سيراً على الأقدام، حتى باتت تلك الشوارع التي مر بها محفورةً على وجهه، وظنها الكثيرون منا أنها مجرد تجاعيد، نظراً لتقدمه في العمر، إلا أنها قد تكون ليست مجرد تجاعيد فحسب، بل هي تلك الطرق التي مروا بها منذ سنين، فحفرت وطبعت على وجوههم منذ ذلك اليوم، وأصبحت تظهر مع مرور السنين.

كتبتُ إلى كل من لجأوا إلى منطقة أخرى بعيداً عن بُلدانهم الأصلية وتهجروا، حتى كُتب على جباههم كلمة «لاجئ»، وحملوا معهم مفاتيح البيوت القديمة التي حافظوا عليها، وتنقلت من يدٍ إلى أخرى، ظناً منهم أننا سنرجع يوماً ما، وسنفتح بها نفس الأبواب، وأصبح حلمهم بالعودة إلى الديار، ومن تم حملنا نحن هذا الاسم، وانتقل هذا الحُلم إلينا، وبدأنا نسلك شتى الطرق من أجل العودة، فبدأنا بما نقوم به اليوم من «مسيرات العودة».

هنا أصور لكم كم خسرنا من أجل تحقيق هذا الحلم، وكم ما زلنا ندفع من أجل العودة إلى ديارنا وبلداتنا الأصلية.

في هذه الرواية أصور لكم كيف يرقص الكثير منا أمام فوهات المدافع وأصوات القنابل، من أجل إيصال الرسالة بأن العودة حقٌ

كالشمس، وأنه مهما حدث لنا ويحدث، إلا أننا ما زلنا نزرع الأمل، وما زلنا مستمرين في المطالبة بحقوقنا؛ لانتزاع الأبسط منها من حلوقهم رُغماً عنهم.

صدقوني لا أحد يجيد الرقص أمام الموت غيرنا، وقد يتعجب الكثيرون ويتساءلون: وهل للموت نغماتٌ لتتراقصوا عليها؟

نعم يا سادة، فللموت هنا نغمات وطقوس خاصة، لا أحد يشعر بها غيرنا.

فهل لك أن تتصور كيف يصطف عددٌ من الشبان وهم يتمايلون بالأكتاف ويتشاركون في تصفيق الأيادي؟، فتسقط بينهم قنبلة، أو يقع أحدهم أرضاً، فيتضح أنه مصاب، أو ربما شهيد، ورغم ذلك يشيعونه، ومن ثم يواصلون الدحية والتصفيق.

هنا فقط أقيمت الأفراح، وتم عقد القران للكثيرين، ألم تروا كيف تخرج المرأة الفلسطينية من إحدى الخيام المقامة هناك بعد أن تصنع لها النسوة كُحلاً أسوداً من عجلات الكوشوك؛ لتزين به عينيها العسليتين، وتغطي باقي وجهها بالكوفية، ومن ثم ترتدي ثوبها المزركش وتخرج لترى عريسها قد حُمل على الأكتاف وبيده

العلم الفلسطيني وهو يرفرف في السماء؟

هنا فقط رُفعت الأيادي بإشارات النصر، ومفاتيح العودة التي ظلت محفوظة ومعلقة في جيد الجدات لسنين طوال، انتظاراً ليوم العودة إلى الأرض والديار.

ولكن يبقى السؤال: ماذا بعد كل هذا؟؟

وهل سنعود حقاً؟؟

نهيل الشرافي

الفصل الأول

أنوثة مغتصبة

«الأنثى تبقى أنثى مهما كان ما ينقصها»

اعتدتُ الوحدة والعزلة، منذ أن تماثلتُ للشفاء، إثر عملية أُجريت لي، بسبب تحرك رصاصة في منطقة البطن، كانت ترافقني طيلة حياتي الماضية، بعدما اخترقت تلك الرصاصة اللعينة جسد أمي، وتمركزت في جسدي النحيل، وقد كنتُ وقتها جنيناً صغيراً في رحم أمي، وعندما كبرتُ بدأت الرصاصة تتحرك داخل جسدي، وكان لا بد من إجراء عملية جراحية لي؛ لنزعها من جسدي، بعد أن أصبحتُ غير قادرة على تحمل آلامها، فتوقفتُ عن الدراسة في ذلك الوقت، وكان الفصل الدراسي قد قارب على الانتهاء، ولم أستطع تقديم الامتحانات أو العودة بعدها إلى مقاعد الدراسة، وبالتالي تأخرتُ عن رفيقاتي اللواتي كن في مثل عمري.

أتذكر وقتها أنه جُن جنون معلماتي، عندما علمن بعدم مقدرتي على العودة إلى الدراسة، وحاولن إقناع والدي بضرورة عودتي، والوقوف إلى جانبي؛ لكي أنجح في الامتحانات، لكن والدي وقتها رفض بشدة، بحجة خوفه الشديد عليَّ، خصوصاً وأن جُرحي لم يُشفَ بعد.

كان أبي دائم البكاء بعد إجرائي تلك العملية، لا أدري ما السبب! رغم أن العملية تكللت بالنجاح كما أخبره الطبيب، وكنتُ كثيرا ما أجلس مع نفسي، وكانت الكثير من الأفكار تراودني، وكان

يشغل بالي موضوعاً لا يمكنني مفاتحة أبي فيه، كوني فتاة، فتجرأتُ وقررتُ أن أفاتح زوجة أبي فيه بعد أن ترددتُ كثيراً.

في ذات ليلة، بعد أن انتهينا من تناول العشاء، ونام أخوتي الصغار، ونام أبي أيضاً، ذهبتُ لأُجالس خالتي قليلاً، وحملتُ لها كأساً من الشاي الدافئ.

- خالتي، أقصد (أمي) فأنتِ التي فتحتُ عينيَ على وجودها جانبي منذ أن كنتُ طفلةً صغيرة.

- ماذا هناك يا نور؟، لماذا لم تنامي بعد؟

- هناك ما يقلقني يا أمي.

- تكلمي يا نور، ما بكِ؟

صمتُّ لبعض الوقت.

- تكلمي يا نور، فلدي الكثير من الأعمال أريد إنجازها قبل الخلود إلى النوم.

اضطربتُ وزادت دقات قلبي، ولكن لا بد أن أسألها:

- أمي، لقد وصلتُ سن البلوغ، ولم يأتني الطمث بعد، وأنا خائفة من هذا الموضوع.

اضطربت أمي وقتها، واشتد غضبها وسألت:

- ومن أين عرفت هذه المواضيع؟

فأجبتها بكل براءة:

- أنا فتاة يا أمي، ولا بد أن أكون على علم بهذه المواضيع.

فحاولت أمي أن تخرج من هذا الحوار، وقالت بتوتر:

- ربما من آثار العملية التي أجريت لك، لا تقلقي، فلا زلتِ صغيرة، والآن اذهبي إلى النوم، وغداً نتحدث.

ذهبتُ إلى النوم، وفي رأسي ألف سؤال وسؤال، خصوصاً بعد أن لاحظتُ التوتر الشديد على وجه أمي.

دارت الأم في أرجاء الغرفة، وهي تفكر:

- ماذا أفعل؟، لقد أخذتُ على عاتقي عهداً ألا أخبرها بشيء، ولكن هي فتاة من روح وجسد، وفي النهاية لا بد أن تعرف، يا إلهي! يكاد رأسي ينفجر، في الغد سوف أخبر والدها وهو يخبرها إن شاء بطريقته.

مرت الليلة وكانت أطول ليلة بالنسبة لي، فقد بقيتُ أفكر في وضعي، وسبب تأخر ذلك الشيء عني؛ لأشعر بأنني مكتملة كباقي الفتيات من جيلي.

استيقظت الأم في ذلك الصباح باكراً، رغم عدم نومها إلا في وقتٍ متأخر، أو يبدو أنها لم تنم نهائياً، جهزت فنجان القهوة لوالدي، الذي كان يقرأ ورده الصباحي، منتظراً إشراقتي وفي يدي فنجان قهوته الصباحي.

دخلت الزوجة على زوجها على غير عادتها.

- صباح الخير يا أبا محمد.

استغرب أبو محمد من نشاط زوجته، فقد اعتاد شرب القهوة مع ابنته نور، فسأل زوجته:

- أين نور؟، هل هي مريضة؟

تساءل الوالد والقلق قد بان على وجهه، ونظر إلى زوجته فلاحظ أنها منتفخة العينين، وقد بدا التوتر على وجهها، فبدأت هي بالحديث:

- أبو محمد هناك موضوع لم أنم من كثرة التفكير فيه طوال الليل.

- ماذا هناك يا امرأة؟، تكلمي.

- نور سألتني ليلة أمس عن سبب تأخر الطمث عنها، وقد تجاوزت سن البلوغ.

اهتز فنجان القهوة في يد أبي محمد وتساءل:

- وماذا قلتِ لها؟

- أجلتُ الحديث معها إلى الصباح؛ لكي أسألك ماذا أفعل؟

- إياكِ أن تخبريها بأي شيء تعرفينه، فتتدمر نفسيتها.

- وماذا أقول لها؟

أخبريها بأن هذا الشيء طبيعي نتيجة العملية التي أجريت لها، المهم تصرفي واقتربي منها أكثر.

- ولكن يا أبا محمد...

قاطعت نور حديثهما عندما دخلت عليهما، وقد كانا على وشك الانتهاء من احتساء القهوة.

- صباح الخير.

رد والدي بلهفة

- صباح الخير يا عين البابا.

فابتسمتُ وقبّلتُ جبين والدي، الذي أشعر معه بالحنان، ربما؛ لأنه دائماً قريب مني، وأقدم له كل ما يطلبه حينما تكون أمي مشغولة.

تبسمت أمي وقالت لي:

- نور حبيبتي، اذهبي، لنجهز الفطار، سأرفع فنجانا القهوة، وأحضر خلفك.

- حاضر أمي.

واصلت أم محمد حديثها مع زوجها إثر خروج نور من الصالة وتساءلت:

- أبو محمد، لماذا لا ندع نور تُكمل دراستها؟، لتجد ما يشغلها.

- الفكرة جيدة، ولكني أخاف على مشاعرها إن خرجت وخالطت العالم.

- لا تخف، بإمكاننا تسجيلها لتكمل تعليمها عن طريق

الدراسات المنزلية، وبهذا تشغل وقتها، وتملأ فراغها، وتبقى تدرس بالقرب منك.

- فعلا يا أم محمد، إنكِ ابنة أصول، هيا اذهبي وأخبريها؛ لتثلجي قلبها الحزين وتغمريه فرحاً.

هرعت أم محمد تنادي بفرح:

- نور، يا نور.

- نعم يا أمي، لقد انتهيتُ من تجهيز الفطار.

- بهذه السرعة، المهم هناك خبر سيُفرحكِ كثيراً.

- ما هو يا أمي؟

- والدك وافق أن تكملي دراستك.

- صحيح يا أمي، ولكن...

- ماذا هناك يا نور؟

- هل أترك والدي وحده؟

- يا عزيزتي أنا قربه، وأنتِ سوف تكملي تعليمك عن طريق الدراسات المنزلية، بمعنى أنك ستدرسين في البيت، ولا تخرجين إلا لتقديم الامتحان، وهكذا تحققين أحلامك، ولا تشعرين بالذنب تجاه والدك.

ومنذ ذلك اليوم والسعادة تغمرني، فلم يعد للوحدة مكان في

حياتي، آه كم اشتقتُ للدراسة والكتب وطابور الصباح والأصدقاء، بدأتُ بالجد والاجتهاد لتحقيق ذاتي، ولأخرج من قوقعة الوحدة التي حكم بها أبي عليّ بحُجة خوفه الشديد عليّ بعد أن أجريتُ تلك العملية التي لم أشعر بعد إجرائها بأي ألم بحمد الله.

أصبحتُ كالشمس التي تشرق رغم تلبد الغيوم حولها، لتخبر الغيوم بأنه رغم تصادمكم إلا أنني أشرق، ولأملأ الكون دفئاً ونوراً. جهزتُ نفسي لبدء الدراسة لنيل شهادة الإعدادية، لم تكن هذه المرحلة بالصعبة بالنسبة لي، عكفتُ على السهر الطويل على ضوء الشمعة الخافت بعدما ينام الصغار؛ لأسترق القليل من الهدوء والتركيز، أصبحت الدراسة شغلي الشاغل، وهدفي الوحيد؛ لأنير دربي، حتى أنني نسيتُ أو بالمعنى الأدق تناسيتُ موضوعي الخاص.

اقتربت الامتحانات، وكنتُ أستعد في تلك الليلة لامتحان اللغة العربية الذي سيكون في الغد، حتى سمعتُ تمتمات من أمي تقول لأبي:

- ألم تر يا أبا محمد بأن نور تغيرت؟

- نعم، لقد أصبح وجهها يشع نوراً وحياةً، وكأنها أحبت الحياة من جديد.

جئتُ واقتربتُ منهما، فسألني والدي:

- كيف دراستك يا ابنتي؟، هل أنت مستعدة لامتحان الغد؟

- الحمد لله يا أبي، أنا فقط محتاجة لدعواتك الجميلة.

- إنني أشعر بالجوع، أمي هل أجهز العشاء؟

- لا، لا اذهبي وواصلي دراستكِ وأنا سأجهزه، ذهبتُ لأكمل دراستي وقلبي يتأرجح من شدة الفرح، هل أنا في حلم؟، ما سر هذا التغيير الذي طرأ على عائلتي؟، لا يهم الآن، المهم أن أخرج وأحقق أحلامي.

قالت أم محمد لزوجها:

- سأذهب لأجهز العشاء لي ولك ولنور.

توقفت أم محمد قليلاً وقالت:

- صحيح يا أبا محمد، ألم أخبرك؟

- بماذا تخبريني؟.

فقالت بهمس:

- حتى أن نور لم تعد تفتح معي موضوع سبب تأخر الطمث عليها، رغم قلقي الشديد عليها، فهي لا بد من أن تعرف كل شيء ذات يوم.

- لوقتها فرج ورحمة يا زوجتي الغالية.

حلّ الصباح، وكان صباحاً يختلف عن كل الصباحات، صباح

يلفه الأمل بأن الغد سيكون أفضل، تجهزتُ بأقصى سرعة من أجل الخروج للامتحان، وقبلتُ جبين والدي، ولامست دعواته جدار قلبي، وودعتُ أمي بابتسامة رضا وخرجتُ، وبالرغم من عدم وجود طابور الصباح، وضجيج زميلاتي عندما كنا نراجع قبل دخول الامتحان لآخر دقيقة، إلا أنني كنتُ في غاية النشوة والسعادة.

كان الامتحان في غاية السلاسة، فلم أجد صعوبة قط في أي سؤال، ورغم غيابي الطويل عن هذه الأجواء المشحونة بالتوتر، وصغر سني في هذه القاعة، فالأغلب هنا قد تكون متزوجة وعادت للدراسة بعد سنين طويلة.

انتهيتُ من إجاباتي قبل انتهاء الوقت المحدد، وسلمتُ ورقة إجاباتي وهرعتُ كطفلةٍ صغيرة إلى البيت لأطمئن والديّ.

كان والدي في غاية التوتر والقلق من أن أفشل، وفشلي بالنسبة له يعني عودتي إلى قوقعة الوحدة والحزن، التي إن عدتُ لها، فلن أخرج منها أبداً.

بمجرد دخولي البيت صاح والدي:

- أخبريني ماذا حدث، هل ستنجحين؟

فقررتُ أن أوتر أعصابه قليلاً، فأخبرته:

- أنجح! وهل أعرف النجاح أنا؟

زاد توتر أبي، وقبل أن يصرخ على أمي قلتُ:

- سأتفوق يا أبي ولن أنجح فقط، النجاح بسيط وأي شخصٍ يحصل عليه، أما أنا فسأجعلك رافع الرأس يا أبي.

زادت ثقة أبي بي، وأخذ يدعو لي بأن أكون صاحبة مستقبل باهر.

بعد حوالي أسبوعين من انتهاء الامتحانات، ظهرت النتائج التي أبهرت كل من حولي، حتى أنا صُدمتُ فرحاً، فقد كنتُ أتوقع الحصول على درجة الامتيـــاز، لكن لم أكن أتوقع أن أكون الأولى على جميع من كان معي في الدراسات المنزلية، لم تتسع الدنيا وقتها لفرحتي، وزادت ثقتي بنفسي أكثر، وتحمستُ أكثر للمرحلة القادمة، التي ستفصل بين مكوثي في البيت، أو خروجي للحياة الجامعية.

كان عليّ أن أجتاز المرحلة الثانوية بأعلى معدل؛ لأثبت لمن حولي أنني متفوقة رغم تأخري وانقطاعي عن الدراسة، اخترتُ الفرع العلمي وقتها رغم صعوبته، ولم يقف أحدٌ وقتها أمام رغباتي، ورغم معرفتي بالصعوبات التي سأتعرض لها أثناء دراستي للفرع العلمي، خصوصاً أنني تركتُ التعليم لفترة، والوضع الاقتصادي الصعب لعائلتي لن يسمح لي بأن آخذ الدروس الخاصة، إلا أن كل هذا لم يهمني وقلتُ لهم:

- لا داعي للقلق، سأعتمد على نفسي وأجتهد وسأنجح، أعدكم

بذلك، ولكن كل ما ينقصني هو الدعم المعنوي منكم لا غير.

وبالفعل لم أجد أي مانع منهم، وسجلتُ لاختبارات الثانوية العامة، وأحضرتُ كل ما يلزمني من كتب وكراسات، وبدأتُ التحدي.

في بداية الأمر واجهتُ بعض الصعوبة في فهم بعض المواد العلمية، كون هذه المواد مرتبطة بالأعوام السابقة، فالمناهج مترتبة على بعضها البعض، حاولت أمي مساعدتي بعض الشيء، ولكن بحكم دراستها للفرع الأدبي لم تساعدني كثيراً، حتى أنه لم يكن لي صديقات بسبب دراستي المنزلية، لكني سلكتُ الطريق.

مرت الأيام بسرعة، واقترب موعد الامتحانات، وكنتُ أمسك أحد كتبي، وأجلس في غرفة الجلوس مقابل أبي الذي لاحظ سرحاني، وعدم رغبتي في الدراسة، فناداني:

- نور، تعالي لأخذ قسطٍ من الراحة، فقد اشتقتُ لحديثك وجلساتك الهادئة.

جلستُ قربه، فربت على كتفي وتساءل:

- ما بك يا ابنتي، أراكِ اليوم غير سعيدة، حتى أنكِ لم تنجزي ما عليك من دروس؟

فاعتدلتُ في جلستي وأخبرته:

- أبي، الامتحانات على الأبواب، وأنا لا أملك هوية شخصية

بعد، ولن يُسمح لي بدخول قاعة الامتحانات بدونها.

- صدقتِ يا ابنتي، فلقد كبرتِ ولا بد من عمل هوية شخصية لكِ، لا عليكِ، في الغد تذهبين مع أمكِ لعملها، سامحيني، فأنا لا أزال أراكِ طفلتي المدللة.

- ولكن يا أبي ثمن عملها مكلف بالنسبة لنا.

- لا عليكِ يا نور، لا عليكِ.

فرحتُ وقتها كثيراً، فقد زالت المشكلة التي كانت تقلق تفكيري، وسأدخل قاعة الامتحان دون أي عوائق، فأخبرتُ والدي:

- والآن، سأذهب لأكمل دراستي.

في اليوم التالي، ذهبتُ برفقة أمي لعمل الهوية الشخصية، بعدما خرج إخوتي الصغار إلى مدارسهم، قمنا بالإجراءات اللازمة، ووقتها طلب منا الشخص المسؤول عن هذه الأمور من أمي الإفصاح عن هويتها كمعرف، وطال الأمر من أجل التأكد من أنها زوجة أبي؛ لأنها ليست مسجلة من ضمن عائلتي، وسأل عن سبب تأخرنا في عمل الهوية، فقالت له أمي:

- الفتاة كانت متعبة لمدة طويلة، حتى أنها تأخرت عن دراستها.

بعد مضي ساعات تم إخراج هوية شخصية لي، وتملكتني السعادة وقتها، وعدنا إلى البيت، وكان أبي يجلس في مكانه المعتاد

ويقرأ ورده، فسألنا:

- هل تمت الأمور على ما يرام؟

فأجبتُ والدي بمرح:

- نعم يا أبي، وأخرجتُ بطاقة الهوية وقلتُ له:

- انظر، ما أجمل ابنتك!

فتبسم أبي وضحك لمدى سعادتي.

كان الوقت قد مضى وشارف إخوتي على العودة من المدارس، فبدأنا بتجهيز الغذاء وتناولته بسعادة، من ثم هرعتُ بعدها لأدس رأسي بين كتبي، وتملكني الحماس للدراسة، وإنهاء المادة التي بين يديّ، لأبدأ بمادة جديدة، فلم يتبقَ للامتحانات سوى شهرين فقط، وعليّ أن أنهي المنهاج؛ لأتمكن من مراجعته مرةً أخرى.

مرت الأيام واقترب موعد الامتحانات، فبدأ بعض التوتر والخوف يظهر عليَّ، فهذه المرحلة هي الفاصل الوحيد للبدء بحياة جديدة لتحقيق أحلامي.

واجهتُ أثناء تقديمي للامتحانات ضغوطات نفسية شديدة، حتى أنني تعرضتُ لوعكةٍ صحية صعبة، دخلتُ على إثرها المستشفى، وكدتُ أتغيب عن بعض الامتحانات، إلا أنني تحاملتُ على نفسي وذهبتُ لتقديم جميع الامتحانات؛ لأنني لا أريد الفشل أو

بالتحديد أخافه وأخشاه، وتعرضتُ في امتحان الفيزياء لحالة إغماء في قاعة الامتحان، مما اضطر اللجنة لنقلي إلى قاعة خاصة، حتى لا أجلب الخوف والقلق للطالبات أثناء تقديمهن لهذه المادة التي يخافها الجميع، أجبتُ وقتها على بعض الأسئلة وتركتُ بعضها، فقد كنتُ في حالة إعياء شديد، وعدتُ إلى البيت بعد انتهاء الامتحان بصحبة إحدى الزميلات التي تكفلت بإيصالي إلى البيت يومها، دخلتُ البيت وقتها كالمهزومة، دموعي سبقت حديثي عما حدث معي، حتى أنني أخبرتُ والديّ بأني لا أريد أن أُكمل المشوار.

صُعق والدايَّ يومها، وبالأخص أبي وعجز عن الكلام برهة، من ثم قال لي: مكتبة .. سُر مَن قرأ

- اذهبي واستريحي قليلاً يا ابنتي، وبعدها نتحدث.

نمتُ يومها ولم أشعر بمن حولي، نمتُ وكأنني لم أنم منذ زمنٍ طويل، وعندما استيقظتُ وجدتُ والدي بقربي لأول مرة يدخل غرفتي ويجلس ملاصقاً لسريري، رُغم صعوبة حركته، وسمعته يتمتم بآيات من القرآن الكريم، اطمأن لها قلبي، اعتدلتُ في جلستي وهدأتُ قليلاً، ولكن دموعي كانت لا تزال تذرف على وجنتيَّ، فبدأ أبي بالحديث:

- نور، ما بكِ يا ابنتي، لم أعهدكِ إلا قوية، فماذا جرى لكِ؟

بدأتُ أبكي بحرقة وأنا أتكلم:

- لقد كانت الأسئلة بسيطة جداً، وأجبتُ على مثلها قبل أن أخرج للامتحان، ولكن لا أدري ماذا جرى لي؟

طبطب أبي على يديَّ وقال:

- يا نور كُفي عن البكاء وإلا سأبكي معكِ، ومن يخلصكِ من بكائي حينها.

ضحكتُ وقتها رُغم حزني وقلتُ في سري:

- ما أطيبكَ يا أبي!

- نور بماذا سرحتِ؟، يا نور هذا الامتحان ليس نهاية العالم، وسوف تعوضين خسارتكِ في الامتحانات المتبقية.

- وهل سأذهب للامتحانات بعد اليوم؟

- بالطبع يا ابنتي، ولماذا لا تذهبين، وقد قطعتِ شوطاً طويلاً؟

- هل سترسبين في هذه المادة؟

- لا، ليس لهذه الدرجة يا والدي.

- وكل هذا البكاء لماذا؟، إن رأيتُكِ تبكين بعد اليوم، فسوف أحزن كثيراً، اذهبي واغسلي وجهكِ وتناولي طعامكِ من أجل أن تكملي دراستكِ وتستعدي للامتحان المقبل، فلم يتبق إلا القليل، وينتهي العام الدراسي، ولا تقلقي يا ابنتي، فمهما كان معدلكِ،

فسوف تذهبين إلى الجامعة وتكملين دراستكِ، فهذا وعدٌ مني.

ارتحتُ لكلام والدي وقتها، ودعوتُ الله أن يوفقني من أجل أن أُسعد قلبه ويفخر بي، ومن أجل تحقيق هدفي - بأن أثبت له أن الفتاة ليست ضعيفة، لدرجة أن يخاف عليها أهلها من أي شيءٍ، حتى من نزول الشارع لوحدها لمجرد أنها فتاة - أريد أن أغير العادات والتقاليد التي تربى عليها والدي، وأبين له بأن الدنيا تغيرت، وأن الفتاة أو المرأة أصبحت تخرج وتعمل، بل وأصبحت طبيبة أو محامية مثلها مثل الرجل.

مضت الأيام وانتهيتُ من تقديم الامتحانات، لكنني لم أسترح بعد، فأنا الآن أعيش أجواء من التوتر والخوف، الخوف من الفشل الذي ربما يعيدني إلى قوقعة الوحدة من جديد.

بعد أيام تم الإعلان بأن نتائج الثانوية العامة ستظهر في الغد، من وقتها لم تأتني رغبةٌ للنوم، كان الجميع قد ذهب للنوم، فذهبتُ لأستلقي على الأريكة في غرفة المعيشة، بعد محاولات كثيرة من أجل أن يغلبني النعاس، لكنها باءت بالفشل، وكان التيار الكهربائي منقطعا، فجلستُ أحدق في سقف الغرفة، وأفكر وأنتظر أن يزول ظلام الليل بسواده الكئيب، فغداً بالنسبة لي يوم غير عادي، فسوف يتم إعلان نتائج الثانوية العامة من خلال مؤتمر صحفي يضم غزة

والضفة، فلأول مرة منذ وقت طويل يبث مؤتمر موحد بينهما. جاءت أمي وقتها، فوجدتني ملقاة على تلك الأريكة وعيناي تحدقان إلى الأعلى، حتى أنني لم أشعر بدخولها إلا بعد أن تنحنحت وقالت:

- ما بكِ يا نور؟، لماذا لم تذهبي للنوم؟، فالساعة تجاوزت منتصف الليل.

فأجبتها بصوتٍ منخفض:

- أنتظر النتيجة يا أمي.

فضحكت أمي وقتها وقالت:

- يا نور اذهبي إلى النوم، فأنا على يقين بأنكِ ناجحة، فلقد تعبتِ كثيراً في الدراسة هذه السنة.

وضمتني إلى صدرها بحنان فقلتُ في نفسي:

- أه لو أن أمي على قيد الحياة، فكم أنا بحاجة إلى حضنها.

حلَّ الصباح أخيراً، كان كل من في البيت مستنفراً ومتوتراً، الكل ينتظر معرفة نتيجتي، وكانت الكهرباء لا تزال مقطوعة، فأحضرنا الراديو الخاص بأبي، والذي كان يعمل على البطاريات الصغيرة.

بدأ المؤتمر بالبث المباشر بين غزة والضفة، ومن ثم تم الإعلان عن أسماء العشرة الأوائل من كلا الفرعين، وفور الانتهاء من المؤتمر، بدأت الرسائل تصل عبر الهواتف المحمولة، وبالطبع لم أكن أملك

هاتفاً خاصاً بي، فعملتُ الخدمة على هاتف أمي الكشاف، لم يصل إلى هاتفها أي رسالة، حتى أننا لم نسمعه يرن، وكأنه أعلن الصمت في ذلك اليوم، فبدأ التوتر والخوف يسري في أجسادنا، وبدأت علامات الاستفهام تدور بيننا، كان الجميع ينظر نحوي، فشعرتُ بالخيبة وقتها ورددتُ في نفسي:

- هل يُعقل أن أكون فاشلة إلى هذا الحد؟

كاد الصراع بيني وبين نفسي يقضي عليَّ، وأنا أحاور نفسي:

- هل يُعقل أن أكون قد رسبتُ بمادة الفيزياء؟

كادت الدموع تنزلق على وجنتيَّ، إلا أنها توقفت فجأة عندما سمعتُ رنين هاتف أمي، لكني لم أقاوم ولم أتحرك من مكاني وقتها، وكأن الشلل قد أصاب أطرافي، وكاد يُغمى عليَّ، إلا أن زغاريد أمي أيقظتني مما أنا فيه، فاطمئن قلبي قليلاً، وهتفت أمي بصوتٍ مرتفع مخاطبةً أبي:

- مبروك نور نجحت.

نور نجحت! لم تعجبني هذه الكلمة كثيراً، فأنا لم أكن أريد النجاح فقط، هرعت أمي نحوي تهزني بقوة، فقد كان والدي يكلمني:

- نور والدكِ ينادي عليكِ، ما بكِ، لِمَ لا تردين؟، لقد نجحتِ وحصلتِ على معدل سبعين بالمئة.

نزلت دموعي وقتها بغزارة شديدة، إلا أن والدي ضمني إليه بقوة، وأخذ يُهدئ من روعي ويقول:

- ألف مبارك يا حبيبتي، أنا فخورٌ بكِ لا عليكِ، فالمعدل جيد، احمدي الله يا ابنتي.

حمدتُ ربي وقتها، رغم أنني لم أكن مقتنعة بمعدلي، وشعرتُ بأنني فاشلة، فلولا امتحان الفيزياء لما كان معدلي هكذا.

وعندما لاحظ والدي حزني قال:

- لا عليكِ يا ابنتي، فالمرحلة الثانوية قد انقضت على خير، والآن لا بد من التفكير في القادم، اجلسي مع نفسكِ، وقرري ماذا تودين أن تدرسي في الجامعة، ولا تقلقي فمعدلكِ جيد والفرع العلمي مليء بالتخصصات المتنوعة، فاتخذي قراركِ بنفسكِ.

وقتها كنتُ في غاية الفرح، رغم استغرابي من حوار أبي معي، أبي الذي أمرني بالمكوث في البيت بعد إجرائي تلك العملية، بحجة خوفه عليَّ، الآن يقول لي: اتخذي قراركِ بنفسكِ، كم أنا سعيدة يا الله!

كانت الأيام تمر، وأنا أفكر ماذا أريد أن أكون في المستقبل؟، وفي نهاية المطاف، اقتنعتُ بتخصص التمريض، فهو التخصص الأقرب لمعدلي، وبالتالي سأتمكن من الاهتمام بأبي أكثر، وأكون مستعدة عندما يحتاج إلى حُقنة، أو دواء معين، والأهم من ذلك كله؛ لأرى

وضعي الذي انشغلتُ عنه كل هذه الفترة، أثناء تقديمي لامتحانات الثانوية العامة، وبعد كل هذا التفكير والحوار، الذي دار بيني وبين نفسي، ذهبتُ لأبي لأخبره بقراري، رغم خوفي الشديد من رفضه لتخصص التمريض.

- أبي، أبي.

- اجلسي يا نور، ها حدثيني إلى أين وصلتِ؟

- فكرتُ كثيراً، وقررتُ أن أدرس التمريض.

- التمريض تخصص جميل وإنساني، ولكن فيه صعوبة على الفتيات.

- يا والدي أولاً لا فرق بين فتاة أو شاب في وقتنا الحاضر، والأهم من ذلك كله أنني سأدرس هذا المجال من أجل أن أهتم بصحتكَ أكثر.

حاول أبي وقتها أن يقنع نفسه، رغم خوفه الشديد عليَّ من عواقب لا أعلمها تجاه هذا التخصص، حيث قال لي:

- هناك أمور قد تصدمك أثناء دراستكِ لعلم التمريض.

لم أفهم ما يقصده وقتها، لكني كنتُ مصرة على هذا التخصص، فوافق على مضض.

والآن سأبدأ حياة جديدة وتحديات جديدة، فبعد أن استلمتُ شهادتي من المدرسة، قررتُ التسجيل في الجامعة الإسلامية، فمنذ

صغري وأنا أحلم أن أدخل هذه الجامعة.

وبعد حوالي شهرين، بدأ العام الدراسي، وكان عليَّ الخروج وحضور المحاضرات، على عكس دراستي للثانوية العامة، والتي كانت في محيط جدران المنزل فقط.

أخيراً خرجتُ لممارسة حياتي الجديدة، فقد بدأتُ بتشكيل صداقات مع زميلاتي في الجامعة، كنتُ محرومة من تشكيلها في السنوات السابقة، تعلمتُ الكثير من الفتيات هنا في الجامعة، عن كيفية الملبس والحفاظ على المظهر الخارجي كأي فتاة، ورغم تفاوت العمر بيني وبين زميلاتي اللواتي كنتُ أكبرهن سناً، إلا أنني استطعتُ التكيف معهنَ.

مرت الأيام وتعرفتُ على «خلود» تلك الفتاة الجميلة التي أحببتُها كثيراً واستراح لها قلبي أيضاً، وكانت بقربي في جميع المواقف، بحلوها ومرها، فشعرتُ بأنها ستكون صديقتي الصدوقة وبئر أسراري.

اقتربت خلود مني كثيراً، حتى أصبحت جزءاً من حياتي، ورغم أنني أكبرها بسنين إلا أنها هي من كانت تدعمني، لدرجة أنني شعرتُ معها بأمانٍ لم أشعر به من قبل.

فكانت كثيراً ما تطلب مني الذهاب بعد الانتهاء من دوام

الجامعة إلى حديقة ما؛ لنجلس تحت الأشجار ونتسامر، لكني كنتُ أرفض بشدة، فلاحظت تعصبي عندما كانت تطلب مني التنزه تحت الأشجار وأنا أرفض بعصبية، حتى أنني قلتُ لها يوماً:

- خلود أنا أكره الجلوس تحت الأشجار.

استغربت خلود من حديثي وتعجبت متسائلة:

- وهل يكره أحدنا منظر الطبيعة الخلابة؟، هناك سر يا نور، ما هو؟ أخبريني.

فقلتُ لها: تعالي نجلس على أحد المقاعد وسأروي لكِ قصتي:

- أنا لا أكره الطبيعة، فهي من أجمل ما خلقه الله لنا، ولكن أمي توفيت بين الأشجار.

استغربت خلود، فهي لم تعرف من قبل أن أمي متوفاة، فلم تأتِ فرصة لأخبرها، وقالت:

- أنا آسفة يا نور، لم أكن أعلم بأنكِ يتيمة الأم، فمنذ أن عرفتكِ وأنتِ تحدثيني عن والدكِ فقط، ولم تتحدثي عن أمكِ، لكني لم أكن أتوقع أنها متوفاة.

- لأنني لا أعرف أمي.

- ولكن أخبريني كيف توفيت أمك؟

وبدأتُ أروي لها القصة:

- كان أبي مزارعاً، ويمتلك أرضاً كبيرة قريبة من الحدود، فقد كانت حرفته الأساسية الزراعة، وكان دائما ما يذهب إلى أرضه ويعتني بالمزروعات، ولكن في وقت الحصاد كانت أمي ترافقه؛ لكي تساعده في جني المحاصيل، وعندما جاء وقت الحصاد قبل سنوات، كانت أمي في شهرها الثامن تحملني في أحشائها، وقد كانت متعبة كثيراً، لكن يومها أبت إلا أن ترافق أبي لجني المحاصيل، رُغم رفض أبي.

في ذلك اليوم، بدأ جنود الاحتلال بإطلاق رصاصاتهم اللعينة على المزارعين قرب الحدود، كانا معتادين على ذلك، ولكن في ذلك اليوم اشتد إطلاق الرصاص، وبدأ المزارعون بالهروب، لكن أمي وقتها كان ثقيلة الحركة، سارع أبي ليمسك يدها ويهربا، إلا أن الرصاصات اخترقت جسديهما، فأصيب أبي وقتها وأصبح عاجزاً عن الحركة، أما أمي فقد عانت كثيراً؛ لأن الرصاصة دخلت إلى أحشائها وكادت تمزقني، حاول الأطباء إنقاذها، لكن كان هناك خطرٌ كبيرٌ على حياتي، فحاول الأطباء نزعي من أحشائها؛ لكي أعيش الحياة، فتعرضت أمي وقتها لنزيف حاد، فارقت الحياة على إثره.

- أمي فارقت الحياة؛ لكي أعيشها، وبدأتُ بالبكاء.

- آسفة يا نور، فقد فتحتُ جراحكِ سامحيني.

كفكفتُ دموعي وقلتُ لها:

- لا عليكِ يا صديقتي، هو عجز والدي ما يحرق قلبي، كلما نظرتُ إليه أتخيل أن الحدث يحدث الآن.

- أبي يا خلود منذ ذلك الوقت وهو يرتجف عليَّ خوفاً، وهذا هو سبب تأخري عن الدراسة، فقد أقعدني لفترة طويلة عن الدراسة، خصوصاً بعد إجرائي تلك العملية، وبعد محاولات كثيرة من زوجته ها أنا أعود لأكمل تحقيق أحلامي.

- آه يا نور، لقد عانيتِ كثيراً، ولهذا السبب أجدك حريصة جداً على طلب العلم، ومتفوقة في دراستكِ أكثر منا، فعلاً لا أحد يشعر بالنعم إلا من فقدها، لقد أحببتُكِ جداً يا نور، وأحببتُ قوتكِ وصبركِ، لن أتركِ بعد اليوم، سأتعلم منكِ مواقف الصبر، وأعدكِ بأن قلبي سيكون مفتوحا لكِ وقتما شئتِ، واعتبريني صندوق أسراركِ.

- أكيد يا خلود، فأنا محتاجة لكِ، فهناك الكثير من الكلام لا بد أن أخبركِ به.

قرب خلود مني جعلني أقوى من قبل، أصبحتُ أشارك في مختلف ميادين الحياة، وأحببتُ الحياة الجامعية وعشقتُ تخصصي، فقد علمتُ من خلاله كيف أنعم الله عليَّ بالصحة، في حين أن الكثير لا ينام ساعةً واحدةً على بعضها دون آلامٍ تكابده ليل نهار.

ازدادت معرفتي من خلال تخصصي عن صحة المرأة، وقمة

الإبداع في خلق جسدها المعقد، وأهمية حدوث الدورة الدموية لها؛ للحفاظ على صحتها ووقايتها من الكثير من السموم، التي تخرج تلقائياً عند حدوث الدورة الدموية لها في كل شهر، ومن هنا زاد قلقي وعاد الاكتئاب يلف جدران قلبي من جديد، أصبحتُ أكثر عصبية، أتشاجر مع عائلتي وزميلاتي على أتفه الأسباب، لاحظ أبي في الفترة الأخيرة شدة توتري، فاقترب مني قائلا:

- أريحي نفسكِ يا ابنتي قليلاً، لِمَ كل هذا الضغط؟

بالطبع، ظن أبي أن ما أنا فيه سببه زيادة الدراسة وضغطها عليَّ، فابتسمتُ له يومها رُغماً عني وخاطبته:

- حاضر يا أبي، لم يبقَ إلا القليل وينتهي الفصل الدراسي وأستريح، لا عليكَ أنتَ.

مع اقتراب موعد الامتحانات زاد الضغط عليَّ أكثر، فتشاجرتُ مع زميلاتي في الجامعة على أمور تافهة، حتى نعتوني وقتها بالمعقدة، لمعت عيناي وقتها، وكأنها كانت تحاول مقاومة البكاء أمامهن، التقت عيناي مع عينيَّ صديقتي المقربة خلود، فهزت رأسها يومها وكأنها تقول لي:

- لا تهتمي لهن.

أجلت خلود حديثها معي إلى أن انتهينا من تقديم الامتحانات،

وبالفعل كنتُ وقت تقديم الامتحانات في ضغط شديد، وشعرتُ يومها بأنني أريد أن أنفجر، حتى أنني جمعتُ أغراضي بعد تقديمي للامتحان الأخير، وكنتُ أريد الهرولة بسرعة إلى البيت، إلا أن صوت خلود أوقفني.

- نور إلى أين؟، أريد الجلوس والحديث معكِ بشيء مهم.

جلستُ معها يومها على مضض، فأنا لستُ راغبة في الحديث مع أحد، ولكنها صديقتي التي أحبها، ولا أريد أن أخسرها، جلسنا في حرم الجامعة، انتظرت خلود أن أبدأ الحديث أولاً، لكنني لم أتفوه بحرفٍ واحدٍ، فبدأت هي:

- نور ما بكِ؟، أراكِ هذه الأيام على غير عادتكِ، أين نور المرحة التي لا تفارق وجهها الابتسامة؟

- لا شيء يا خلود، فقط ضغط الامتحانات.

- عليَّ يا نور هذا الكلام! أنا أصبحتُ أفهمكِ أكثر من نفسكِ، امتحانات ماذا التي تغير نور هكذا؟، نور المجتهدة التي تحدت الظروف لتصل.

- تكلمي يا صديقتي، ألم نأخذ على نفسينا عهداً بأن نكون أكثر من أختين؟

صمتُ قليلاً، ثم قلتُ:

- هناك ما يقلقني يا خلود.

زاد انشغال بال خلود وقالت:

- تكلمي يا نور، ماذا بكِ؟ وما الذي يقلقكِ؟

كنتُ مترددة في البداية، وأشعر بالخجل بعض الشيء، ولكن إصرار خلود دفعني لأن أبوح لها عما يقلق تفكيري فقلتُ لها:

- لقد تجاوزتُ سن العشرين، ولم يأتني الطمث بعد، أو ما يسمى بالدورة الشهرية.

تنهدت خلود وقالت:

- اعتقدتُ أن الأمر أخطر من هذا، لا داعي للقلق، فأنا أعرف الكثير من الفتيات يتأخر عندهن حدوث هذا الشيء، فلا تقلقي، وحاولت تغيير الموضوع فقالت:

- هل تعلمين بأنني أتضور جوعاً؟، هيا لنأكل شيئاً.

ابتسمتُ رغماً عني، فكلام خلود لم يقنعني كثيراً، ولكن أسلوبها المرح جعلني أتناسى ما أرهق تفكيري، وقضينا بقية اليوم معاً، ضحكنا كثيراً، حتى مضى بنا الوقت دون أن نشعر، وعدتُ إلى البيت مرهقةً جداً، حتى أنني نمتُ بسرعة دون أن أغير ثيابي، وكأنني لم أنم منذ دهر.

حينها كانت خلود تجلس في غرفتها تكابد السهر، وتفكر في

موضوع نور حتى أنها حدثت نفسها:

- كيف لم يخطر في بالي أن أسأل نور عن العملية التي أجريت لها؟

بالفعل كانت خلود تتميز بسرعة البديهة، رغم تحصيلها المتدني في الجامعة.

بعد عدة أيام، تفاجأتُ بزيارة خلود لي في البيت، فلم تفعلها قبل ذلك رغم عرضي عليها زيارتي في البيت أكثر من مرة، كانت مفاجأة جميلة بالنسبة لي، رحبتُ بها وعرفتها على أفراد أسرتي، وكنتُ مشتاقة لها، أو بالأحرى كنتُ محتاجة لأتحدث معها، أما هي، فشعرتُ أنها جاءت لسبب ما فقد طلبت مني:

- نور ما رأيكِ أن نجلس في غرفتكِ؟

استأذنتُ من عائلتي، بحجة أننا نريد أن نتحدث عن أمور الجامعة والفصل الثاني ودخلتُ إلى الغرفة التي أنام فيها مع إخوتي، فلم أكن أمتلك غرفة خاصة بي، أخرجتُ أخويَّ الصغيرين من الغرفة، وقلتُ لهما:

- اذهبا لمشاهدة التلفاز.

تحدثنا قليلاً وسألنا أنفسنا عن أحوالنا، ومن بين الحديث سألتني خلود:

- نور، ما هي العملية التي أجريت لكِ؟، واعذريني إن قلبتُ

لكِ المواجع، هو مجرد سؤال عابر.

- لا عليكِ يا خلود، فنحن أكثر من أختين، ولا بد أن نعرف عن بعضنا البعض كل شيء، إنها عملية بسيطة، فأنا لم أخبركِ بأنه - بعد سنوات - اكتشفنا أن الرصاصة التي دخلت إلى جسد أمي بقيت عالقة داخل جسدي الصغير، ولم يستطع الأطباء وقتها إخراجها من جسدي خوفاً على حياتي، ولكن عندما كبرتُ أصبحت الرصاصة تتحرك وتؤلمني، فكان لا بد من إجراء عملية لإخراجها.

- وأين كانت الرصاصة؟

أشرت بأصبعي وأخبرتها:

- هنا أسفل البطن، حتى أن آثار الجرح لا يزال واضحاً.

صُدمت خلود، وأصبحت كأنها لطمت على وجهها، هززتُها بعنفٍ حتى انتبهت لي وقلتُ لها:

- هل يوجد شيء، ما بكِ تغيرت ملامحكِ فجأة؟

صمتت خلود لفترة من الوقت، ثم تشجعت وقالت:

- نور، لا بد أن تزوري طبيبا مختصا.

- طبيب ماذا؟، لا أفهم ماذا تقصدين!

- يا نور لا بد من أن تذهبي إلى طبيب النساء لعمل الفحوصات اللازمة؛ لأنه قد تكون العملية التي أُجريت لكِ هي سبب تأخر

مجيء الدورة الشهرية لديكِ.

توترتُ وزاد انفعالي، وقلتُ لها:

- بالفعل، أخبرتني خالتي بأن العملية قد تكون أثرت عليَّ.

- اهدئي يا نور، نريد الاطمئنان لا غير.

فقلت لها:

- ولكن لا أستطيع فعل هذا، فهو مرفوض في عاداتنا، فلا يُسمح للفتاة بزيارة طبيب النساء إلا بعد الزواج، فكيف تطلبين مني الذهاب؟، وهل أذهب لوحدي، بالطبع مجنونة أنتِ؟.

- حاولي مع خالتكِ، لتذهب معكِ، واشرحي لها ضرورة الأمر وأهميته بحكم دراستكِ لعلم التمريض.

- بالطبع أمي لن توافق إلا بعد أن تخبر أبي، وأنا أعرف أن أبي سيرفض، فلا داعي لفتح الموضوع معهما.

- ولكن يا نور...

- خلود أرجوكِ كفي عن الإلحاح في هذا الموضوع.

يئست خلود من عنادي وردت:

- براحتك، أنا قدمتُ النصيحة.

غادرت خلود من عندي يومها وهي منزعجة، حتى أنها لم تعد تسأل عن أخباري، وفي الحقيقة، أعترف بأنني كنتُ قاسية في كلامي

معها، وكأنني كنتُ أفرغ غضبي بها، حتى أنها تركتني أصارع أفكاري عن هذا الموضوع، الذي أصبح الكابوس الذي يلازمني ليلاً ونهاراً، وكم كنتُ بحاجة لوقوفها بجانبي في هذه اللحظات!

حاولتُ الاتصال بها مراراً، لكنها لم تكن لترد على مكالمتي، أعلم أنها تُكابر رغم اشتياقها لي.

مرت الأيام وانتهت الإجازة، ونسيتُ موضوعي نهائياً، وعدنا إلى مقاعد الدراسة لبدء فصل جديد.

دخلتُ الجامعة وكلي اشتياق لرؤية خلود، بحثتُ عنها بين أروقة الجامعة، وبعد طول بحث لمحتها أخيراً، هل كانت تظن بأنني لن أبحث ولن أسأل عنها؟، هتفتُ لها بأعلى صوت:

- خلود.

تجاهلتني بكبريائها الذي أعرفه، لكنني قفزتُ نحوها، وضممتُها بقوة إلى صدري وقلتُ لها:

- لا أستطيع التخلي عنكِ، فأنتِ رفيقة دربي وينبوع أسراري.

ابتسمت وضمتني إليها بقوة، لم أشعر بدفء هذه الضمة من قبل، وغرقنا في البكاء سوياً، لمحتنا طالبات دفعتنا، فاقتربن منا، وأخذن يضحكن بصوتٍ مرتفع وقالت إحداهن بنبرةٍ مليئة بالاستهزاء:

- لِمَ كل هذا الاشتياق؟

فأرادت خلود إغاظتهن فردت:

- ما بيننا أكثر من اشتياق.

فهن لم يستطعن تكوين صداقات قوية مثلنا، وبمثل هذه المدة القصيرة.

دارت الأيام وكان للنصيب أن يدق بابنا، خصوصاً بعد أن بدأتُ بالخروج، وعلم الجيران بأن هذا البيت تقنط فيه فتاة في عمر الزواج، ولكن في كل مرة، كنتُ أخرج بها ليراني صاحب النصيب، ويعجب بي ويبهر بجمالي، خصوصاً أنني كنتُ أتصف ببعض الجمال، فقد كنتُ يافعة الطول، حلوة المبسم، أمتلك عيونا عسلية تلمع مع أشعة الشمس، ولكن تنتهي الجلسة بعدم الموافقة على قراءة الفاتحة، ولا يعود العريس، ولا يحدث النصيب.

جن جنوني لدرجة أنني أصبحتُ أحدث مرآتي، لعلها تخبرني بأني قبيحة ويستريح بالي، كنتُ كثيراً ما أتساءل في نفسي:

- ما الذي يجري لي؟، ولماذا في كل مرة يحدث نفس الشيء لا أدري؟

كان أبي ينظر إليَّ خلسةً، وعيونه توشك على الانفجار من شدة حبسه لدموعه، خوفاً من أن يذرفها أمامي.

حتى أنني تغيبتُ عن الجامعة لمدة طويلة، فتواصل أبي مع

صديقتي خلود، لعلها تحاول إخراجي مما أنا فيه.

جاءت خلود وأدخلتها أمي إلى غرفتي، وحين شعرتُ بوجودها دمعت عيناي فقالت خلود:

- ما بكِ يا نور؟، ولماذا تفعلين بنفسكِ كل هذا، أذلك كله من أجل عريس؟، أمجنونةٌ أنتِ؟

- اجلسي يا خلود.

- لا أعلم يا صديقتي، هناك شيء غريب يحدث ولا أعرفه، ففي كل مرة يكون العريس مبهوراً بي، ولكن فجأة تنقلب الأمور ضدي.

- لا داعي لكل هذا، فالقدر والنصيب بيد الله وحده، ولهذا أرجوكِ، اهدئي واطمئني

صمتُ قليلاً، ثم قلتُ:

- هل يعقل أن يكون أحدٌ ما قد عمل لي سحراً؟

ضحكت خلود وقتها حتى كاد يُغمى عليها من كثرة الضحك، وبـدأتُ أصرخ بها كالمجنونة؛ لتتوقف عن الضحك، وعندما وجدتني على هذه الحالة، توقفت وشعرت بالخجل، وضمتني إليها وهمست لي:

- سامحيني أرجوكِ، ولكن لا بد أن تكوني أقوى من كل هذا، ولا توقفي أحلامكِ من أجل رجل، قد يكون أُبهر بجمالك، لكنه

اكتشف فيكِ عيباً ما، الرجل الذي يحب بصدق لا ينظر إلى العيوب.

- أعلم ذلك يا خلود، ولكن الأمر تكرر أكثر من مرة، وهذا ما جعلني أفكر بأن يكون أحدٌ قد عمل لي عملا ما.

- ولنفرض أن كلامكِ صحيح، فمن من مصلحته أن يعمل هكذا، ولماذا؟، صحيح أن هذا ذُكر في القرآن، ولكن نحن مؤمنون بأقدار الله أكثر من أن نترك تفكيرنا لأشياء قد تكون مجرد أوهام.

- ولكن من حقي أن أفهم ما يدور حولي، أشعر بأن حياتي فيها لغز معين، لكن لا أجد أحدًا ليفهمني إياه، لقد تعبتُ يا خلود، تعبتُ لدرجة أنني أتمنى الموت.

غضبت خلود مني وقالت:

- لا تقولي مثل هذا الكلام، أخبريني كيف يمكن أن أساعدكِ؟

- اسمعي، أنتِ قبل قليل قلتِ لي بأن السحر ذكر في القرآن الكريم، وهذا يبعدنا عن أن نفكر بأننا نعمل أي إثم.

- ماذا تقصدين بكلامكِ؟، وإلى أين تريدين أن تصلي؟

- أريد منكِ خدمة، ولكن لا أعلم إن كنتِ ستوافقين على مساعدتي أم لا؟

- ماذا تريدين أن أفعل؟

- أريد أن تذهبي معي لأحد الشيوخ؛ لكي يقرأ عليَّ.

ارتجفت خلود من طلبي، فلم تتوقع أن أطلب منها مثل هذا الطلب، وقالت:

- ولكن أنا أخاف الخروج لمثل هؤلاء.

- ما بكِ يا خلود؟، فقط أريد أي شيخ؛ ليقرأ عليَّ.

وبعد تفكير خلود الطويل، قالت لي:

- ولماذا - بدلا من الذهاب إلى الشيوخ - لا نذهب إلى الطبيب؟

- وما علاقة الطبيب بموضوعنا؟

- يا نور أنتِ مشكلتك طبية، يا نور ابحثي حولكِ، أنا متأكدة بأن عائلتكِ تُخفي عنكِ شيئاً ما، صارحيهم.

صرختُ وقلتُ:

- أبي.

فقالت خلود:

- ما به؟

- كيف نسيتُ هذا الأمر؟، والدي صريح في مثل هذه الأمور، خصوصاً في أمور الزواج؛ لأنه ستبنى بعده حياة أبدية، ربما أبي يصارح من يأتي لخطبتي بموضوع العملية التي أجريت لي، وعدم حدوث الطمث لي بعدها، الآن فهمتُ ما يدور حولي.

- لهذا يا نور، أطلب منكِ أن تراجعي طبيب النساء.

- لا تذكريني أرجوكِ، فأنا لا أريد الزواج، ربما يظن من يأتي لخطبتي ويعرف مشكلتي بأني غير قادرة على الإنجاب، لهذا لا يعود، معهم حق.

ومنذ ذلك الحوار الذي دار بيني وبين خلود، اتخذتُ قرارًا بألا أخرج لأي شخص يطرق الباب لخطبتي، ونسيتُ مواضيعي الخاصة، ورميتُ بها خلف ظهري وقررتُ أن أركز في دراستي وأجتهد أكثر، فلم يتبقَ إلا القليل لأتخرج، وبعدها سأجلسُ قرب والدي وأقدم له الرعاية الصحية، فهو بحاجة لي، فمنذ انشغالي في الدراسة وأنا بعيدة عنه، حتى أنني لاحظتُ أن الحِمل أصبح ثقيلاً على أمي، فقد أصبحت تتعب كثيراً.

- ما أروعكِ يا نور، المهم أن تكوني بخير يا صديقتي الغالية، وأنا على يقين بأنكِ قوية، وأن الله يُخبئ لكِ الخير في المستقبل.

مضت الأيام بسرعة، وها أنا اليوم أتوج على منصة التخرج، وأكون الأولى على دفعتي، وكانت المفاجأة جميلة جداً، ففي يوم تخرجي قررت الجامعة منحي عقداً للعمل لمدة سنة كاملة في مستشفى الشفاء الطبي كوني الأولى على دفعتي.

كانت فرحتي لا توصف عندما أصدر رئيس الجامعة هذا القرار، حتى دمعت عيناي فرحاً.

ومنذ ذلك اليوم، وأنا أشعر بأن لي كياناً، أثبتُ جدارتي لكل من حولي، لم يكن أبي معنا في الحفل وقتها؛ ليسمع ويرى ابنته، فمجرد انتهاء مراسيم الحفل لم أستطع الانتظار ولو لدقيقة واحدة، نسيتُ وقتها صديقاتي ونسيتُ الحفل، حتى نسيتُ بأنهم قد يطلبونني للحديث عن نفسي كوني الأولى على دفعتي، وهرعتُ إلى البيت؛ لألقي بجسدي بين أحضان أبي، وأخبرته:

- لقد تخرجتُ ونجحتُ يا أبي، وحصلتُ على فرصة عمل من رئيس الجامعة.

لم تتسع الأرض ولا السماء وقتها لفرحة أبي عندما سمع هذا الخبر، ففي حكم الأوضاع التي نعيشها في غزة، وقلة فرص العمل، كان الخبر بمثابة حُلم، لم أكن لأفكر فيه من قبل، أمسك أبي رأسي بيديه المرتجفتين، وقبّلني من جبيني وقال لي:

- الحمد الله يا ابنتي! لقد تعبتِ في حياتكِ كثيراً، وتستحقين حصاد هذا التعب اليوم.

فأمسكتُ يديه واستمررتُ في تقبيلهما وقلت له:

- لن أنسى فضلك يا والدي الغالي.

الفصل الثاني

مسيرات العودة

«هنا فقط تُرقص الدحيةُ على أنغام القنابل وبين
رشقات الرصاص»

في صباح اليوم التالي، تجهزتُ من أجل الخروج والذهاب إلى عملي الجديد في مستشفى الشفاء؛ لأبدأ بمداواة المرضى والسهر على راحتهم، بحكم وظيفتي الإنسانية التي عشقتها، وبدأتُ أعتاد على وجودي وعملي هناك، وكانت الأيام تمر بسرعة من شدة حلاوتها، وبالرغم مما كنتُ أشاهده من آلام هناك، إلا أنني أعود بعد انتهاء دوامي إلى البيت وقد خلعتُ ثوب الأحزان عما شاهدته خلال اليوم؛ ليستريح بال أبي عندما أجالسه وأطمئن على صحته.

وبالفعل، أصبح عملي هو كل حياتي وشغلي الشاغل، فلم أعد أفكر في شيءٍ آخر، لدرجة أنني انشغلتُ عن صديقاتي بعد تخرجنا، حتى لم أعد أرى صديقتي خلود كثيراً بحكم عملي ودوامي الطويل.

لكني أعترف بأن خلود أخلص مني، ففي يوم من الأيام، فاجأتني بزيارتها لي في مكان عملي؛ لأعترف لها بأنني مقصرةٌ حقاً، كم كنتُ مشتاقة لها، فأخذتها وجلسنا معاً في ساحة المستشفى وبدأنا نتسامر.

- أخبريني ماذا فعلتِ بعد التخرج؟

فتوردت وجنتا خلود وقالت:

- لقد خطبتُ.

- ولماذا لم تخبريني؟

فقالت خلود بلهجتها المتسرعة:

- حضرتك مشغولة عن الجميع.

فهززتُ برأسي وقلتُ لها:

- أنتِ على حق، لقد انشغلتُ كثيراً عنكِ، فعملي في المستشفى أصبح كثيرًا، خصوصاً بعد أن بدأت مسيرات العودة، وزاد عدد الجرحى والمصابين.

- لا عليكِ، المهم يا نور أنا أتيتُ إليكِ لذلك الموضوع.

فتعجبتُ وقلتُ:

- أي موضوع!

- يا نور موضوعكِ الخاص، لماذا لا تقومين بعمل بعض الفحوصات هنا بحكم عملك؛ لمعرفة الخلل في عدم مجيء الدورة الشهرية لكِ؟

- ياه، لا يزال هذا الموضوع في بالك، لقد نسيتُ أمره تماماً.

- لماذا يا نور؟، هذا الموضوع لا يمكنكِ تجاهله أو نسيانه، وهذه فرصة وجاءت لوحدها؟

حاولتُ أن أغير الحديث فأجبتها:

- إن شاء الله خير، المهم أخبريني متى فرحكِ؟

فردت خلود بلا مبالاة:

- في الصيف إن أراد الله.

- ولماذا تتكلمين بيأسٍ هكذا؟، ألا تحبينه؟

- كيف لا أحبه؟، أنا أعشقه، ولكنه دائماً يذهب لمسيرات العودة، وأنا خائفة من حدوث أي مكروه له هناك.

- يا خلود توكلي على الله، وإن شاء الله نفرح بكما في إجازة الصيف.

ثم اتفقنا على الخروج معاً يومها بعد انتهاء الدوام، وبالفعل قضينا يوماً رائعاً ذكرني بأيام الجامعة، فكم كنتُ مشتاقة للخروج معها والاستماع لأحاديثها الجميلة.

انتهى اليوم بسرعة، دون أن نشعر، فكان الوقت قد سرقنا من شدة اشتياقنا لبعضنا البعض، وعدتُ في ذلك اليوم إلى البيت مرهقةً جداً، وما إن انسدل الليل، حتى اتجهتُ إلى فراشي، فقد كنتُ في غاية الإرهاق والنعاس، ولكن رغم تعبي الشديد إلا أنني أُصبتُ بالأرق، فحديث خلود معي اليوم منع عني النوم، فسهرتُ الليل أفكر، وأحدث نفسي:

- هل أقوم بعمل الفحوصات غداً؟، كما اقترحت عليَّ خلود، وماذا لو كان هناك شيءٌ سيء؟

كان القلق قد صاحب نور طوال الليل.

أشرقت الشمس عليَّ، دون أن تغمض لي عينٌ، وقد توصلتُ - بعد كل هذا التفكير - إلى ضرورة عمل الفحوصات اللازمة،

فخرجتُ من البيت دون أن أتناول الفطور بحجة أنني قد تأخرتُ، وقلتُ لأمي:

- سأشتري أي شيء عن الطريق.

استغربت الأم من تصرف نور، فهي غير معتادة على تناول الطعام خارج المنزل.

وصلتُ المستشفى وجهزتُ نفسي لعمل الفحوصات اللازمة، وقامت إحدى زميلاتي بعمل اللازم لي، وخلال الفحوصات طلب مني الطبيب عمل صورة أشعة لباطن الرحم.

فدخلتُ قسم الأشعة، وطلبتُ من الطبيب المختص هناك أن يجري لي صورة أشعة لباطن الرحم، وهنا كانت الصدمة، فقد أخبرني الطبيب قائلاً:

- لا وجود للرحم يا أنسة نور.

كاد يُغمى عليَّ، فأين أهلي من كل هذا؟، كانت الصدمة قد أصمتني، فحملتُ حقيبتي وهرعتُ إلى المنزل.

استغرب والدايَّ عودتي بهذه السرعة من عملي، فسرتُ بينهما كالمجنونة أصرخ دون وعي، فلم يفهم أحدٌ ما بي. حتى تحرك لساني وتحدثتُ:

- أخبروني ما هي العملية التي خضعتُ لها وأنا في المدرسة؟

علت الصدمة وجهيهما، وسالت الدموع من عيني أبي، وبعد فترة صمت من الجميع قال لي أبي:

- اجلسي يا ابنتي، وسأروي لكِ كل شيء.

وبدأ أبي حديثه:

- كما أخبرتكِ سابقاً، إنه تم إنقاذ حياتكِ، وأنت طفلة صغيرة لم تخرجي من أحشاء أمكِ، وكتب الله لكِ بأن تعيشي، وقال الأطباء بأنها معجزة، ولكن بعدما كبرتِ بدأتِ تشعرين بآلام في معدتك، وبعد عرضك على الأطباء وجدوا بأن الرصاصة قد بدأت بالتحرك من مكانها، وخاف الأطباء من إزالتها حينها؛ لأنكِ كنتِ صغيرة جداً، لكنها أصبحت قريبة جداً من جدار الرحم، وكان لا بد من إزالتها، فخضعتِ لعملية، ولكن خلال العملية تعرضتِ لنزيف حاد جداً، فاضطر الأطباء إلى أن يقوموا باستئصال الرحم بعد أخذ موافقتي على هذا، وإلا سأفقدكِ إلى الأبد.

دمعت عيناي عندما سمعتُ الحقيقة، فقال لي أبي:

- نور أنا أعيش اليوم؛ لأنكِ ما زلتِ على قيد الحياة، أنتِ من جعلتني أحب الحياة، وقد اضطررتُ أن أتزوج من أجل أن أجد من يخدمنا ويرعاكِ.

وأشار بيده إلى زوجته التي وقفت تبكي بحُرقة وقال:

- هذه المرأة كانت نعم الأم لكِ، وأنا من كنتُ أحاول أن أبعدها عنكِ خوفاً من أن يرق قلبها عليكِ يوماً ما، وتبوح لكِ بكل شيء حاولتُ أن أخبأه عنكِ كل هذه السنين، لقد خبأتُ عنكِ كل هذا خوفاً عليكِ من الانهيار أو الصدمة، وكنتُ أنتظر الوقت المناسب لأخبركِ بكل شيء، لكن ها أنتِ عرفت كل شيء قبل أن أخبرك، بحكم دراستك، أرجو أن تعذريني يا ابنتي.

بعدما سمعتُ ما سمعتُ لم أتفوه بكلمة، ومشيت بثقلٍ واتجهتُ إلى غرفتي، وكل من حولي يبكي لأجلي، حتى أختي دينا، حاولت أن تنادي عليَّ، ولحقت بي، لكني لم أعطها بالاً.

كانت خلود تريد الاطمئنان على نور، وهل أجرت الفحوصات؟، ولكن بعد محاولات عديدة من اتصالات خلود التي لم ترد عليها نور، قررت زيارتها في المنزل، فتحت دينا الباب فردت خلود قائلة:

- السلام عليكم، أين نور؟، أنا أحاول الاتصال بها منذ الصباح، ولكنها لا ترد.مكتبة .. سُر مَن قرأ

شعرت خلود بأن هناك مصيبة كبيرة، فوجوه من في البيت مكفهرة.

أخبرتها دينا بأن نور في غرفتها، فاستأذنت من الجميع ودخلت مسرعةً إلى غرفة نور، فوجدتها غارقةً في دموعها، وفي حالة يرثى

لها، فخفق قلبها خوفاً عليها وقالت:

- نور ماذا هناك؟، أخبريني.

توقفتُ عن البكاء فجأة وقلتُ لها:

- خلود أحشائي ليست كأحشاء أي فتاة.

ثم عدتُ للبكاء بحرقة، استغربت خلود من كلامي، ولم تفهم مني شيئا، وخرجت من الغرفة قائلة:

- سأعود حالاً.

اتجهت خلود إلى الخالة أم محمد، وقالت لها:

- خالتي، أريد أن أفهم شيئاً مما يدور هنا.

فردت الخالة:

- اجلسي يا ابنتي، وسأشرح لكِ كل شيء، لكن عديني أن لا تتركي نور، فهي بحاجة لكِ هذه الأيام.

- كيف أتركها؟، نور أختي أكثر من أن تكون صديقتي.

روت أم محمد القصة كاملة لخلود، فصدمت خلود مما سمعته ودمعت عيناها، فهذه بالفعل صدمة قوية، ولا تُصدق، حاولت خلود أن تهدأ، وجففت دموعها لتظهر أنها قوية أمام صديقتها، ودخلت عليها الغرفة، فوجدتها صامتة دون حراك، فأيقنت خلود بأنها تعرضت لصدمة قوية، فخرجت مفزوعة وقالت:

- نور بحاجة إلى طبيب نفسي، أرجوكم ساعدوني!

كانت تبكي بحرقة، وكأنها تبكي على أختها، وحاولت مسرعةً للاتصال بطبيب مختص.

جاء الطبيب لرؤية نور والكشف عليها، وأعطاها حقنة مهدئة، وأخبرهم قائلاً:

- لا تقلقوا، فهذه الحقنة ستنام عليها حتى الصباح، وهذه الروشيتة فيها مجموعة من الأدوية لا بد من شرائها.

تناولت خلود الورقة من الطبيب بسرعة وقالت:

- لا تقلقوا أنا سأحضر الدواء من الصيدلية، ولكن أخبرنا كيف وضع نور؟

- ستتحسن، هي على ما يبدو تعرضت لصدمة قوية، ولكن وقوفكم إلى جانبها سيخرجها من أزمتها بسرعة، هي تحتاج إلى دعمكم لها.

خرجت خلود بصحبة الطبيب، وأخبرت والد نور:

- سأعود بسرعة يا عم، بعد أن أشتري الدواء المطلوب من أقرب صيدلية.

وفي طريق عودتها تواصلت مع خطيبها:

- كيف حالك يا حسام؟

- بخير.

- حسام أريد قضاء الليلة في بيت صديقتي نور.

- ومنذ متى تبيتين خارج البيت؟

- يا حسام صديقتي متعبة، وهي بحاجة لقربي منها.

- وما فائدة مبيتك عندها؟، هيا عودي إلى البيت.

اشتد غضب خلود وقالت له:

- وما فائدة ذهابكَ كل يوم إلى مسيرات العودة؟

واشتد الخناق بينهما أكثر، وغضب حسام كثيراً وأغلق هاتفه، لم تبال خلود وقتها، فبالها كان مشغولاً بصديقتها التي لطالما وقفت إلى جانبها أيام الدراسة والجامعة.

سهرت خلود بجانب نور حتى الصباح، ولم تغف لها عينٌ وهي تتمتم وتدعو لها، وتقرأ بعض آيات القرآن.

في الصباح استيقظت نور؛ لتجد خلود تغفو على طرف السرير، فهزتها برفق:

- خلود منذ متى وأنتِ هنا؟

قالت خلود بعينين مغمضتين:

- نور، حمداً لله على سلامتكِ، لقد أقلقتنا عليكِ، أنا أعرفكِ أقوى من ذلك بكثير، ما بكِ؟

تذكرت نور ما حدث وطأطأت رأسها وقالت:

- لا سبيل للحياة بعد الآن، فأنا اليوم مدمرة بالكامل، ولا أملك شيئاً بعد أن مزق الاحتلال أحشائي، وانتزع أنوثتي.

وبدأت بالبكاء من جديد.

ضمتها خلود إليها بقوة وقالت:

- لا يا نور أنتِ قوية، ولا بد أن تستمري بالحياة من أجل أن تأخذي بثأركِ وثأر أمكِ وأبيكِ.

- كيف آخذ بالثأر، ماذا تقصدين؟

- الشباب الثائر خلف السياج بحاجة إلى تطبيب جراحهم على يديكِ، من أجل أن يستمروا بالمسيرة وقهر العدو، وكما ترين أعداد الجرحى في ازدياد.

زادت هذه الكلمات من إصرار نور، لتعود وتتعلق بالحياة من جديد، فأشاحت عنها الهموم والأحزان وخرجت من غرفتها.

صرخت الخالة أم محمد عندما رأت نور تخرج من الغرفة وقالت:

- أبو محمد انظر نور بخير.

هرعت نور إلى أمها التي ربتها وقالت لها:

- كم أنتِ أمٌ عظيمة؟، كتمتِ السر؛ لكي لا تجرحي مشاعري.

فضمتها وقالت:

- والدكِ من أجبرني على إخفاء الحقيقة، لقد كان خائفاً كثيراً على مشاعركِ.

فنظرت إلى والدها مبتسمةً، وقالت في نفسها:

- كم أنا محظوظة بك يا أبي!

عادت نور كما كانت، تغني للحياة رغم أنها لم تعزف لها لحناً جميلاً، سوى مرة واحدة في يوم تخرجها، وباقي ألحانها كانت قاسية، لكنها صنعت منها أنثى قوية.

وخرجت وباشرت عملها من جديد، بعد أن تحسنت صحتها، وعادت لتجد أنها ليست الوحيدة التي دفعت ثمن حب الوطن، وثمن العيش بكرامة، كانت تشاهد أعداد المصابين يزيد يوماً بعد يوم، فقد كان بين كل دقيقة ودقيقة يأتي جريح أو شهيد.

كانت نور في عملها كالمعتاد، فتذكرت خلود وقالت:

- كم اشتقتُ لخلود، فلم أعد أراها كثيراً، نظراً لمكوثي الطويل في المستشفى، أداوي الجرحى، لذا سأدعوها وعائلتها للسهر عندنا في نهاية الأسبوع، سأهاتفها الآن:

- خلود كيف أحوالكِ؟، لا بد أن تأتي لزيارتنا نهاية الأسبوع برفقة والدتك، أنا بانتظاركِ.

- أمرك أنا لا أستطيع أن أرفض لكِ طلبًا.

جاءت خلود برفقة والدتها في مساء نهاية الأسبوع، وقضينا وقتاً جميلاً، وكان الجميع مسروراً ويضحك، لكني لاحظتُ بأن خلود على غير ما يرام، وكأنها في عالم آخر، فاستأذنتُ من الجميع بحجة أنني مشتاقة للجلوس مع خلود لوحدنا، فأمسكتُ بيدها وذهبنا للجلوس في غرفتي.

- خلود ما بكِ؟.

- لا شيء.

- لا شيء هذه تقولينها لغيري.

رفعت خلود عينيها وخاطبتني:

- تشاجرتُ مع حسام.

- لماذا؟

قطبت حاجبيها وقالت:

- بسببكِ.

- نعم، كفاكِ مزحاً، وتكلمي ماذا هناك؟، وما سبب الشجار؟

- تشاجرنا يوم كنتِ متعبة، بسبب إصراري على المبيت قربكِ، وقد رفض هذا، فعاندته.

- لا بد أن تتأسفي له والآن، هيا هاتفيه.

- لن يرد.

- سيرد، فقط أنتِ لم تفكري بالحديث معه بعد تلك المكالمة.

- معكِ حق.

هاتفت خلود خطيبها، وبالفعل رد على المكالمة وأخبرها:

- خلود لقد كنتُ أريد مهاتفتك للتو، أريد أن أراكِ في الغد.

- ومتى في الغد؟

- أنتِ تعلمين أن غداً جمعة «الكوشوك» أراكِ في الصباح قبل أن أذهب إلى هناك، ما رأيك؟ فأنا مشتاقٌ لكِ كثيرا.

قالت خلود بخجل:

- أنا أيضاً مشتاقة لك.

- لقد سبقتني بالاتصال، فالهاتف رن باسمكِ وأنا أمسكه.

- هذا يعني أنكَ كنتَ تفكر أن تصالحني.

- بالطبع يا خلود، أراكِ غداً إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

انتهت خلود من مهاتفة خطيبها، وبدأتُ بالحديث معها بمرح:

- ولا روميو وجولييت

احمرت وجنتاها من شدة الخجل، وأخبرتني قائلةً:

- لستُ مرتاحة يا نور، أشعر أن في قلبي غصة.

قاطع حديثنا رنين هاتفي، وكان المتصل إدارة المستشفى، فقد

طلبوا مني أن أستعد للطوارئ غداً.

أنهيتُ مكالمتي، ثم واصلت خلود حديثها:

- ألم أقل لكِ إن قلبي غير مطمئن، خائفة من حدوث مكروه لحسام.

- ما بكِ يا خلود؟ بإذن الله لن يحدث شيء، وهو دائماً هناك، يبدو فقط أنكِ مشتاقة له كثيراً.

- ربما مجرد اشتياق، سأغادر أنا وأمي؛ لتستريحي قليلاً، طالما أن غداً لديكِ دوام.

عادت خلود برفقة أمها إلى المنزل، وما إن وصلت حتى كان حسام ينتظرها عند باب البيت، فهرعت إليه:

- حسام، ما بكَ تجلس هنا؟

- لم أستطع الانتظار إلى الغد، فقررتُ أن آتي وأقضي الليلة معكِ.

فرحت خلود لهذا القرار، ومن كثرة اشتياقها له رأته أميراً على غير عادته.

- حسام أعتذر لكَ لعدم سماع كلامك في المرة الأخيرة.

قاطعها حسام وقال:

- لا داعي للاعتذار، لقد أثبتِ لي من خلال ذلك الموقف، كم أنتِ إنسانة رائعة، وتحبين الخير.

كانت تلك الليلة أجمل ليلة يقضيها حسام برفقة خلود وأخذ يخبرها:

- سأكون أجمل عريس يا خلود.

تأملت خلود حسام وقالت:

- كلامك جميل هذه الليلة.

نظر حسام إلى ساعته وقال:

- لقد تأخر الوقت ولا بد أن أغادر الآن، نلتقي في الغد.

رفعت خلود كفها لتودعه وهي تقول:

- خذ حذركَ في الغد، ولا تقترب من السياج، لأجلي يا حسام.

سمعت خلود صدى صوتها يقول: لأجلي يا حسام.

لوح لها حسام وقال:

- إن شاء الله.

لم تستطع خلود في تلك الليلة أن تنام، كانت قلقلة ولا تدري لماذا؟ حتى انشق عليها الصباح، وكانت في غاية الضجر، حاولت تهدئة نفسها، ففتحت التلفاز لتقلب القنوات، فرأت سماء غزة موشحة بالسواد عبر الشاشة، من كثرة ما أُشعل من عجلات الكوشوك لغاية الآن.

قرأت شريط الأخبار الذي يقول بأن العدو يضرب بشكل عشوائي على المتواجدين هناك، بعد أن جن جنونه وأصبح لا يرى شيئاً من كثرة الدخان الأسود، الذي أصبح يتجه ضدهم بفعل قوة

الرياح، كانت خلود تحدق في الشاشة، حتى لمحت شاباً غارقاً في دمائه، ومجموعة من الشبان يحملونه، وخُيل إليها أنه يرتدي نفس لون الكنزة التي كان يرتديها حسام ليلة أمس.

تصارحت مع نفسها وقالت:

- ربما لأنها مخضبة بالدماء.

أغلقت شاشة التلفاز، وحاولت الاتصال بحسام، إلا أنها تذكرت أنه لا يوجد إرسال في منطقة الحدود، فبدأ دمها يغلي، ولم تستطع فعل أي شيء، وكأن عقلها أصابه الشلل وعجز عن التفكير.

كنتُ أنا قد وصلتُ مكان عملي في قسم الطوارئ، وبدأت أعداد الجرحى تصل إلى المستشفى كالمطر الغزير.

كنتُ أداوي المصابين، فلاحظتُ وجود شاب ملامحه ليست غريبة عليَّ، وكأنني رأيته من قبل، فاقتربتُ منه لأتعرف عليه، ويا للفاجعة التي ستنزل على صديقتي!، تجمدتُ لا أدري ماذا أفعل؟، كيف سأستطيع إخبارها؟ إنه حساااااام.

تم نقل جثمانه إلى ثلاجة الموتى، إلى أن يتم التواصل مع أهله، فلم أجد أحداً سوى أصدقائه.

وذهبتُ لأتحدث مع خلود، وأجس نبضها، فسمعتُ بكاءها فقلتُ لها:

- اهدئي يا خلود ما بكِ؟، أنا لا أفهم شيئاً.

فقالت بحروف متقطعة:

- لقد رأيتُ مصاباً على شاشة التلفاز قبل قليل يشبه حسام، هل وصل عندكم شهداء يا نور؟

فأخبرتها بعد أن تلعثم لساني عن إخبارها الحقيقة، وقلتُ لها:

- لا تقلقي، فأنتِ تبالغين بالأمر، تعالي انظري إليه، إنه كالأمير النائم، هو بانتظارك.

تماسكتُ؛ لكي لا أبكي، وكذبتُ عليها؛ لكي تصل إليَّ وأصبرها، وهي قريبة مني وبين أحضاني، فقد كنتُ خائفة من انهيارها وهي بعيدة عني، بعد حوالي نصف ساعة، وصلت خلود إلى المستشفى برفقة أمها، كانت تبحث عني حتى وجدتني أداوي أحد المصابين فقالت لي:

- أين هو؟

وبدأت تصرخ دون وعي، حاولتُ تهدئتها وضمها إلى صدري وقلتُ لها:

- خلود أنتِ إنسانة مؤمنة وقوية، وهذا قدرنا في غزة، أن نفقد أعز ما نملك في غمضة عين.

حدقت بي وقالت:

- ماذا تقصدين بكلامكِ؟، وأين حسام؟، ألم تقولي لي بأنه نائم؟

- حسام أصبح عريساً.

- ماذا تقولين؟

وصرخت صرخةً مدوية، وتركتني وأخذت تجري بين أروقة المستشفى وتنادي على حسام، أصبحت كالمجنونة، فهي اليوم تفقد حبيبها وملهمها في هذه الحياة، أخذت تبحث عنه بين ثلاجات الموتى، وأنا أحاول اللحاق بها وتهدئتها، ولكن من يستطيع أن يوقف بركاناً ثار في قلب محبوبة تحاول أن تنادي على حبيبها، لعله يستيقظ عند سماع صوتها.

أخيراً وجدته، وقفت بالقرب منه، وكشفت عن وجهه، وصرخت وقالت:

- حتى ملامحك يا حبيبي شوهوها، يا له من عدو بشع!

أخذت تتحسس جسده بأصابعها المرتعشة، كان جسده بارداً جداً، لكن دمه كان حاراً، وكأنه شعر بها، بكته حتى أصبحت عيناها كجمرة نار، احتضنته حتى صُبغت ثيابها بدمه المتدفق، كان مفتوح العينين، كأنه ينتظرها ليراها قبل أن يرحل عنها إلى السماء.

حاولوا اقتلاعها من فوقه، ولكن لم يستطع أحد، وكأنها أوصلت شرايينها مع شرايينه؛ لكي لا تبتعد عنه، وبعد لحظات أغمي عليها،

وكأنها تحاول الموت لتحلق به، نقلت إلى إحدى الغرف الفارغة، وجلستُ بجانبها بعد أن أعطيتها حقنة مهدئة لتهدأ قليلاً.

هدأ جسدها عن الارتعاش، لكن لسانها لم يهدأ عن تكرار اسمه:

- حسام، حسام.

أخيراً أفاقت، حاولتُ مسح دموعي؛ لأبقى قوية أمامها، فقالت:

- لقد ذهب حسام باكراً جداً يا نور.

فضممتها إليَّ بقوة وقلتُ لها:

- حسام شهيد.

بكت وقالت:

- لقد رحل باكراً، لم أكتفِ منه، لم أشبع منه، لم أخرج معه.

- لا بد أن تكوني قوية يا صديقتي، وتدعي له بالرحمة.

هيا لنذهب إلى البيت لاستقبال العريس، توجهتُ برفقتها إلى بيت حسام، الذي كان يعج بالناس، وبعد صعوبة تمكنا من الدخول إلى البيت من كثرة الحشود التي كانت تنتظر مجيء جثمانه، وعند دخولنا لم نسمع عويلاً ولا صراخاً، فقط سمعتُ أمه تقول:

- كان يتمناها كل يوم، وفي يوم الجمعة فاز بها.

هدأت خلود قليلاً عندما وجدت أمه صابرة ومحتسبة، وضمت خلود إليها وقالت:

- أنتِ حبيبة الغالي، كان آخر شيء قاله لنا:

- أنا أعشق خلود؛ لأن فيها شيء جميل كجمال الوطن.

فدمعت عينا خلود من جديد، إلا أن دموعها تجمدت عند وصول الشهيد، فهرعت إليه لتودعه الوداع الأخير، كان وجهه كالبدر ورائحته تفوح بالمسك، قبلته من جبينه ثم همست في أذنه:

- سأبقى على عهدكِ ما حييت.

ومنذ ذلك الوقت وخلود مرابطة قرب الحدود، أصبح مكوثها هناك أكثر من مكوثها في بيتها، وكأنها تريد أن ترسل رسالة للعدو بأن حسام لا يزال حياً.

حاولتُ الحديث معها كثيراً، وإقناعها بعدم الذهاب إلى هناك، لكن دون جدوى:

- خلود، أرجوكِ كفي عن هذا الجنون.

- وهل بقي عقلٌ بعد رحيل من أحببتُ.

- أتصدقين بأنه كان قربي قبل استشهاده بيوم.

- كيف هذا؟

- عندما عدنا إلى البيت بعد زيارتكِ آخر مرة، وجدته ينتظرني عند باب البيت، وقضى معي الليلة بأكملها، لا أبالغ يا نور إن قلتُ لكِ بأنه كان كالأمير، ولكن لم أكن أتوقع أنه جاء ليودعني وبدأت

بالبكاء وهي تكمل حديثها:

- لقد كان لطيفاً معي، حتى أن ابتسامته لم تغب عن مخيلتي طوال الوقت، وليلتها لم أنم، وكأن حجراً قد وُضع على قلبي.

حاولتُ التخفيف من حزنها وأخبرتها:

- الشهداء منزلتهم عالية جداً، ادعِ له بالرحمة، وأرجوكِ، لا تذهبي إلى الحدود بعد الآن.

- أعدكِ أن أخفف من ذهابي إلى هناك، لكني لا أعدكِ بأن لا أذهب نهائياً، فهناك أشعر بأنني قريبة من حسام، فمن هناك صعدت روحه إلى السماء.

- خلود عديني ألا تتهوري.

قالت لي وهي في عالم آخر:

- أعدكِ.

مضى الوقت، وانتهى عقد عملي في المستشفى، ولكن الوضع لم يكن يسمح لي بترك العمل والمكوث في البيت، فكان لا بد أن يكون لي دور في مسيرات العودة، فبادرتُ للتطوع من أجل هؤلاء الشبان الثائرين على الحدود، وطلبتُ من مدير المستشفى أن يضيف اسمي لقائمة المتطوعين هناك قرب الحدود، ولكن أبي كان رافضاً للفكرة وقال:

- لا يا ابنتي، لا تذهبي إلى الحدود، فهناك خطرٌ عليكِ.

فقلتُ له:

- لا أملك شيئاً ثميناً لأفقده هناك.

دمعت عيناه وقال:

- ووالدكِ يا نور؟

- يا أبي لا تخلط الأمور، فأنا قوية بوقوفكَ إلى جانبي، ولا بد أن أستمر وأخرج لأثبت ذاتي.

- أعرف بأنكِ أخذتِ القرار سابقاً، فأنتِ عنيدة، وأنا عليَّ أن أخضع للأمر.

تلمستُ يديه وقلتُ:

- يا أبي، لا بد أن نضحي مثل الباقين، لأجلكَ ولأجلِ روح أمي.

- توكلي على الله يا ابنتي، ولكن أرجوكِ توخي الحذر هناك، فأنتِ من رائحة الغالية.

حلَّ أول صباح لي، لأبدأ العمل هناك قرب الحدود، وكانت سيارة الإسعاف قد جاءت لتنقلني إلى هناك برفقة زميلاتي، قبلتُ جبين أبي وخرجتُ على تمتمات دعائه الجميل، وما إن خرجتُ من الباب حتى شاهدتُ خلود مقبلةً من بعيد.

تساءلت خلود عندما شاهدت سيارة الإسعاف تقف:

- إلى أين العزم إن شاء الله؟

- إلى الحدود.

- ماذا؟، أراكِ تقدمين النصائح لغيركِ ولا تطبقينها على نفسكِ.

- لا أبداً، الموضوع أن اسمي أدرج للعمل الميداني عند الحدود.

- حقاً، سآتي معكِ، رغم أنني كنتُ أود قضاء اليوم معكِ.

قلتُ لها بنوع من المزاح:

- هل ستعالجين المصابين بحكم دراستك؟

- لا، أنتِ تقومين بعملكِ هذا، وأنا أقوم بدوري الخاص هناك.

- وما دوركِ هناك يا فدائية؟

- لا داعي للسخرية، سترين دوري هناك.

كانت الطريق طويلة بعض الشيء، فلم أذهب إلى هناك من قبل، ونحن في طريقنا إلى هناك قامت خلود بإخراج كوفية من حقيبتها، ووضعتها على وجهها.

فقلتُ لها:

- ماذا تفعلين؟

فردت بعنفوان امرأة ثائرة:

- هذا لزوم الشغل، كل واحدة منا ذاهبة لسبب.

فهمستُ:

- يا لها من مجنونة! وبرغم هذا أحبها.

عندما اقتربنا من منطقة الخيام وتجمع المتظاهرين، شاهدتُ المنظر عن قرب، وكنتُ في غاية الدهشة، رفعتُ رأسي وشاهدتُ كم كانت السماء حزينة، إذ كانت موشحة بثوبها الأسود من أثر اشتعال عجلات الكوشوك.

كدتُ أختنق، فقد كان العدو قد أطلق العديد من قنابل الغاز المسيل للدموع، فناولتني خلود كمامة بيضاء وقالت لي:

- ضعيها على فمكِ، لا أدري كيف لممرضة أن تأتي إلى هنا دون كمامتها الطبية؟!

- قسم الطوارئ هنا مجهز بما يلزمنا يا فصيحة.

ورغم مشاهدتي للأحداث كل تلك الفترة عبر شاشة التلفاز، إلا أن أرض الواقع يختلف، اتجهتُ إلى الخيمة الخاصة بنا، وجهزتُ نفسي لاستقبال الجرحى هناك، واتفقتُ مع خلود أن نجتمع في نهاية اليوم في النقطة التي افترقنا عندها؛ لنعود للبيت معاً.

عملتُ بكل جدٍ من أجل هؤلاء الذين يضحون بدمائهم من أجل العيش بكرامة، كان عملي يحتاج إلى القوة والجبروت، فلم يكن هناك وقتٌ لذرف الدموع، استمر عملي هناك، وكنتُ أعود كل يوم إلى البيت مخضبة بدماء الشهداء والجرحى، فكان أبي يرتعش خوفاً حين يرى ثيابي مخضبة بالدماء، فيظن بأنني قد أُصبتُ، فأطمئنه

وأقول له:

- لا تخف يا أبي، فلن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، هذه الدماء العالقة في ثيابي، هي دماء الشهداء، رائحتها مسك تقربنا من الجنة.

اعتدتُ على العمل هناك، وبرغم ما تعرضتُ له من اختناقات لمرات عدة بسبب استنشاقي للغاز إلا أنني لم أتراجع عن عملي.

ومع مرور الأيام، شعرتُ أن هناك رجلاً يراقب عملي، كان هذا الرجل يعمل سائق إسعاف، يسعف الجرحى وينقلهم، ورغم أنه ليس صغيراً في السن، إلا أنه كان يعمل بجد وقوة شاب في العشرين من عمره، اطمئن له قلبي لا أدري لماذا.. رغم عدم مخالطته لي.

بدأ اهتمامه بي يزيد يوماً بعد يوم، وكان رغم التوتر الذي نعيشه هناك لإنقاذ الجرحى، إلا أنه لا يغض بصره عني.

في يوم من الأيام، تأخرتُ هناك، وكان الإسعاف الذي ينقلنا قد غادر المكان، فمشيتُ برفقة خلود التي بقيت بانتظاري، لعلنا نجد سيارة تنقلنا إلى البيت، فاتجه إلينا إسعاف ظننته أنه الإسعاف الذي ينقلنا كل يوم، إلا أنه كان إسعاف ذلك الرجل الغريب وطلب منا:

- اركبا؛ لأوصلكما في طريقي.

لكني رفضتُ في البداية وسارعتُ لأشكره، لكن خلود وكزتني بيدها وقالت:

- نرجو ألا نكون مثقلين عليكَ.

صدمتني جرأة خلود، وصعدتُ رُغماً عني، وشعوري بألم وكزتها في كتفي أسكتني عن الحديث.

صار بنا، في البداية عرف عن نفسه:

- أنا المسعف حمزة.

ردت خلود:

- أهلاً بكَ.

وبدأ يتحدث:

- لقد كان اليوم متعباً جداً، وقد تعبتِ جداً يا آنسة نور.

نظرتُ إلى خلود، مستغربةً من معرفته لاسمي، رغم عدم حديثي معه من قبل.

وأكمل حديثه:

- ما شاء الله عنك يا آنسة نور، الجميع هنا فخور بعملك الإنساني، إذ إنكِ - وبالرغم من خطورته - لم تتراجعي عنه، قليل هذه الأيام من يحمل روحه على كفه من أجل إنقاذ حياة الآخرين.

فتشجعتُ للحديث وقلتُ له:

- هذا واجبي يا أخ حمزة.

- معكِ حق، الله يكون في عون الشعب، لقد كثرت حالات

البتر والإصابات الخطيرة، والشباب في ضياع.

قلتُ له:

- الوطن يحتاج إلى التضحية، وهذا قدرنا.

نظرتُ إلى الطريق وكنتُ قد اقتربتُ من الحي الذي أقطنُ فيه، فقلتُ له:

- شكراً لك، سننزل هنا ونكمل السير لوحدنا.

لكنه رفض وصمم على إيصال كل منا إلى باب بيتها قائلاً:

- هذا واجبي تجاه من يخدم وطنه.

أوصلني إلى باب البيت، فشكرته، وأكمل هو طريقه برفقة خلود، شعرتُ بشعور غريب لم أشعر به من قبل تجاه هذا الرجل، ولكني لم أكن قادرة على وصف ذلك الشعور، ولم يكن ليغيب عن تفكيري طيلة تلك الليلة.

كانت الأيام تمر، ولا تزال مسيرات العودة مستمرة، ولا يزال الجرح ينزف، وفجوة الألم والفراق آخذة في الاتساع، اعتدتُ على رؤية حمزة في الميدان، حتى إن تأخر يوماً أتشتت ولا أركز في العمل، كنتُ أراقبه من بعيد، كم كان رائعاً يعمل بجد وإخلاص، ورغم كبر سنه إلا أنه كان يسارع إلى حمل المصابين وانتشالهم، والإتيان بهم إليَّ، وكأنه كان يتعمد إرسالهم إليَّ من أجل رؤيتي.

في أحد الأيام كنتُ متعبة، فلم أستطع الذهاب إلى ميدان العمل، رغم أن قلبي كان هناك، وفي المساء دق جرس الباب، تفاجأ الجميع، فمن سيأتي لزيارتنا في هذا الوقت المتأخر؟، فتوقعتُ أن خلود هي من في تدق الباب، جاءت لتطمئن عليَّ، نظراً لعدم ذهابي اليوم إلى العمل، فهرعتُ لفتح الباب، فتجمدتُ في مكاني لا أدري، هل من شدة الصدمة أم من الإحراج الذي سيسببه لي، فقال لي:

- هل أبقى واقفاً هنا؟

فاحمرت وجنتاي من شدة الخجل والتوتر، وقلتُ له:

- تفضل من هنا، حيث أبي يجلس في غرفة المعيشة.

استغرب أبي من هذا الضيف الغريب، وأخذ يحدق بي، فعالجتُ الموقف بسرعة لمنع الإحراج، وأخبرتُه:

- إنه المسعف حمزة الذي أصر على إيصالي في إحدى المرات.

وهرعتُ إلى الداخل وعلامات الاستفهام ترن في رأسي، بعد أن طلب مني والدي تحضير القهوة للضيف.

لم يمكث طويلاً، واستأذن بالانصراف بعد أن اعتذر عن زيارته المفاجئة والسريعة، والتي كانت حيلتها الاطمئنان على صحتي بعد أن علم بأنني متعبة، فقد أُعلم بذلك من زميلاتي في ميدان العمل.

شكرته على هذه الزيارة اللطيفة، رغم أني لستُ مقتنعة بأن

سببها هو الاطمئنان عليَّ فقط.

عكفتُ على أن أنام تلك الليلة باكراً، من أجل الاستيقاظ للعمل في الغد، إلا أن أبي صاح بي قائلاً:

- تعالي يا ابنتي، أود الحديث معكِ قليلاً قبل الخلود إلى النوم.

- تفضل يا أبي.

- نور، حمزة طلب القرب، ويريدكِ زوجة له.

صدمتُ من الموضوع، وقلتُ:

- ماذا؟، ولكنه كبير يا أبي، وعلى الأغلب متزوج، وهو أيضاً لا يعرف قصتي ومعاناتي، وأنا على أي حال نسيتُ موضوع الزواج.

فأخبرني أبي:

- لقد كان متزوجاً، لكن زوجته توفاها الله منذ سنوات، ولديه منها ولدان، ويعرف قصتك بالكامل.

- هذا يعني أنه يريدني مربية لطفليه.

- لا تحكمي عليه قبل أن تفهمي مراده، هو رافض لفكرة الزواج بعد رحيل زوجته، ولكنكِ أنتِ من فتحتِ قلبه من جديد.

سألتُ أبي:

- ومن أين علم بقصتي؟، لا بد أن خلود هي من حدثته بقصتي ومن غيرها؟

- لا يهم يا ابنتي، المهم الآن أن تفكري جيداً وتتخذي قراراً صائباً، ونصيحة مني يا ابنتي أن تفكري بجدية، فهذه فرصة لا تعوض، أريد أن أطمئن عليكِ قبل أن أموت، فأنتِ بحاجة إلى السند من بعدي.

- لا تقل مثل هذا الكلام يا أبي، فأنا لا أستطيع العيش دونك.

- أعلم هذا، ولكن أنا أيضاً أريد أن أفرح بجميلتي.

أخجلني كلام والدي، وقلتُ له:

- سأفكر بالموضوع.

قبّلته واتجهتُ إلى غرفتي، وبالطبع أصابني الأرق ليلتها، فلم أنم طوال الليل وأنا أتقلب على كلا جانبيَّ، وأفكر، هل سأعيش بقية حياتي فرحةً؟، هل هناك من يريدني رغم نقصي؟، نقصي الذي لم يكن إلا بسبب جريمة بشعة من جرائم الاحتلال، الذي لم يرحم حتى ضعفي وأنا جنين صغير في أحشاء أمي، وحكم عليَّ بالموت وأنا على قيد الحياة.

نمتُ بعد أن تصدع رأسي من كثرة التفكير، ولم أستيقظ من نومي إلا بعدما كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً، فاستيقظتُ فزعةً وقلتُ لأمي:

- لماذا لم يوقظني أحد؟، لقد تأخرتُ عن عملي.

فأجابت أمي:

- حاولتُ إيقاظكِ أكثر من مرة، ولكنكِ كنتِ تقولين بأنكِ متعبة، فأبقيتكِ نائمة، على أي حال لا داعي للذهاب للعمل اليوم.

فركتُ عينيَّ من أثر النعاس وقلت:

- معك حق، وليكن يوماً إضافياً لأخذ قسطٍ من الراحة.

كان حمزة هناك يعمل في الميدان، وقلبه قلقٌ لعدم قدوم نور، حتى أنه ظن أن عدم قدومها للعمل دليل على عدم موافقتها عليه.

جاءت خلود من بعيد، مقبلة باتجاه حمزة، وحين اقتربت منه بادرته بالسؤال:

- حمزة، أين نور، لا أجدها هنا؟

- لم تأتِ للعمل اليوم، وأظن أنني السبب في ذلك.

قطبت خلود حاجبيها وتساءلت:

- لم أفهم، ما دخلك أنت؟

- لقد زرتها ليلة أمس، وطلبتُ يدها من والدها.

- بهذه السرعة؟!

- مجنونٌ أنا منذ أن رأيتها، ماذا أفعل؟

- لا تقلق، هي فقط تأخذ وقتها بالتفكير، وهذا من حقها.

- هل يعني أن هناك أملا بأن تقبل الزواج مني؟

- ولِمَ لا؟، أنا أعرف نور كيف تفكر؟، وعلى أي حال سأزورها اليوم وأجس نبضها.

ابتهج حمزة وزادت أساريره فرحاً وقال:

- شكراً لكِ يا خلود.

- يا عم نحن في الخدمة، من أجل سعادة نور أفعل أي شيء.

- بالفعل أنتِ صديقة رائعة، رحم الله حسام!

انفطر قلب خلود وجعاً واشتياقاً، وكادت عيناها تذرفان دمعاً وهي تقول:

- أتعرف حسام؟

- آه، حسام كان كالأمير وقت إصابته، حملته أنا بين ذراعيَّ، وامتلأت يداي بدمائه الطاهرة.

لاحظ حمزة بأن خلود على وشك البكاء، فسارع وقال:

- أنا آسف إن فتحتُ جرحاً آلم قلبكِ، وذكركِ بأحزانكِ

مسحت خلود دموعها وقالت:

- لا عليكَ، فأنا لم أنسه لأفتكره، وهذا سر مجيئي إلى هنا كل يوم.

- وأنا أتساءل طوال الوقت عن سبب مجيئكِ إلى هنا كل يوم.

- نعم، فأنا أشعر بأنني قريبة منه في هذا المكان.

غادرت خلود في هذا اليوم مسيرات العودة باكراً، وذلك من

أجل زيارة صديقتها نور والاطمئنان عليها، عند وصول خلود أخبرت دينا أختها:

- نور، خلود في الخارج تنتظركِ.

رحبتُ بها:

- أهلاً بكِ خلود، هيا بنا نجلس في غرفتي، فهناك حساب عسير بيننا.

استغربت خلود نبرة كلام نور الممزوجة بين الفرحة واللوم، وقالت:

- ماذا هناك؟، لماذا تمسكين بي هكذا؟

قلتُ لها:

- لا تتصنعي المكر، من أرسل قصة حياتي لحمزة؟

فضحكت خلود بمكر وقالت:

- كنتُ هناك قبل قليل، وهو الآن كالمجنون يدور لعدم مجيئك للعمل، وكان يبدو عليه الاستياء، فقد قال لي:

- يبدو أنها لا ترغب بي.

اعتدلت خلود وتكلمت بجدية:

- حمزة معجب بكِ، لا بل مجنون بكِ يا نور.

كانت نور مترددة وحائرة:

- لا أدري يا خلود أأقبل أم لا؟

- فرصة وجاءت، فلماذا الرفض؟، يا نور، نحن أكثر من صديقتين، وأنا الآن أنصحكِ كأخت عزيزة، فمن حقكِ أن تفرحي بنفسكِ.

فتكلمت نور بألم وحسرة:

- وأين الفرح وأنا أنثى معذبة، مغتصبة، ضاعت أنوثتي برصاصة عدو جبان؟

- وحمزة يريدكِ كما أنتِ، وهو يراكِ في كامل أنوثتكِ، فكري بالأمر أرجوكِ.

تبسمت نور وقالت:

- أخبركِ بسر.

- قولي.

- لقد دخل قلبي منذ اللحظة الأولى التي أوصلنا فيها، أتذكرين. شعرتُ بأنه يخاف عليَّ مثل والدي.

فغمزت خلود بعينها وقالت:

- فقط مثل والدكِ.

احمرت وجنتيَّ خجلاً وقلتُ:

- أنا موافقة.

قفزت خلود من شدة الفرح وضمتني وقالت:

- ستتزوجين يا حلوتي.

فقلتُ لها:

- العُقبى لكِ يا خلود.

فردت خلود بعيون باكية:

- أنا نصيبي واكتفيتُ به.

- هل يعني أنكِ ستبقين على عهد حسام إلى الأبد؟

- حسام قطعة من قلبي، ومن الصعب جداً أن يخرج منه، عندما تقتربين من حمزة ستفهمين جيداً ما أقصده، في الغد سوف أخبره بقبولكِ له.

توردت خدود نور وقتها من شدة الخجل، فضمتها خلود إليها بشدة وقالت:

- كم أنا سعيدة لأجلكِ، أخيراً سيدق الفرح والحب قلبكِ الطيب.

غادرت خلود وتركتني أفكر وأنادي على قلبي وأصرخ عليه، هل ستحيا يا قلبي من جديد؟، هل ستزهر وتصبح حديقة غناء بعد كل هذا البؤس؟، هيا يا غد، أقبل بسرعة، فقلبي متعطش للفرح، أريد أن أرقص.. أغني.. أهتف بأعلى صوتي.. سأفرح رُغماً عنك يا عدوي الجبان.

استيقظتُ من أحلام اليقظة على صوت أمي تنادي عليَّ:

- يا نور العشاء جاهز.

أكلتُ ليلتها بنهم، وكأنني لأول مرة في حياتي أشعر بأن طعام أمي لذيذ، فانفرجت أسارير أبي وقال:

- يبدو أن عصفورتي سعيدة اليوم.

فكشفتُ عن ابتسامة لم يرها أبي على وجهي منذ ولدتُ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، ذهب إخوتي الصغار للنوم، وانشغلت أمي في بعض أعمال المنزل، وجلستُ أنا قرب أبي.

- أبي، أريد أن أتحدث معك قليلاً.

- تعالي يا نور، اجلسي قربي، وافتحي لي قلبكِ، فكلي أذانٌ صاغية.

- أبي لقد فكرتُ في كلامكَ، ووجدتُ بأن هذا القلب يجب أن يفرح، وأشارت بيدها إلى قلب والدها، وأخبرته:

- أنا موافقة على الزواج من حمزة يا أبي.

فرح الأب يومها فرحاً شديداً، واستمر يتمتم بالدعاء لابنته بالسعادة، وشعرت نور وقتها بأنها قد بدأت تفهم الحياة وتحبها فعلاً، ونامت وهي مبتسمة وتغني، فكانت ليلتها جميلة مليئة بالأحلام الوردية.

بدأ صباح جديد، شعرتُ بأنه مختلف عن كل الصباحات التي عشتها من قبل، رغم أن الهواء نفس الهواء، لكن ربما يكون الهواء قد

دخل إلى رئتيَّ هذه المرة بطريقة مغايرة، فقد أصبح قلبي منتعشاً يدق بالحياة، ورغم أن عملي يعرضني للتلطخ بدماء الجرحى والشهداء، إلا أنني لبستُ في هذا الصباح أجمل ما أملك من ثياب، وهرعتُ لتقبيل كل من في البيت: أمي، أبي، أخوتي، ولو أنني كنتُ أملك الورد، لوزعته عليهم ونثرته حولهم، ثم خرجتُ مودعةً إياهم واتجهتُ إلى عملي، حتى أنني سمعتُ أختي دينا تقول ممازحة من في البيت:

- ما بها هذه؟، هل جنت؟

فقلتُ في نفسي:

- ربما هي بدايات الجنون.

وصلتُ أخيراً إلى الميدان، فبدأ قلبي يدق بسرعة، وعندما رأيتُ حمزة مقبلاً عليَّ من بعيد، شعرتُ بأنني أريد أن أرفرف كطائر الحب، ولاحظتُ بأن أصابعه تلامس مكان قلبه، وعندما اقتربتُ منه أكثر قال لي:

- انظري، إني أتحسس مكان قلبي؛ لأطمئن بأنه لا يزال في مكانه.

أغمضتُ عينيَّ استحياءً من كلامه العذب، الذي أحيا قلباً ميتاً منذ سنين، وما إن اقترب مني أكثر لمسافةٍ أسمعها به وسط كل هذا الضجيج الهائل، حتى همس لي:

- كم أنتِ جميلة اليوم!، سآتي في المساء لأوقعكِ في شِباكِ قلبي، فلم أعد أحتمل الانتظار أكثر.

هززتُ رأسي على استحياءٍ وقلتُ له:

- أهلاً وسهلاً بكَ، فالعصفورة جاهزة للوقوع في الشِباك.

جاءت خلود فجأة، وأصبحت بيننا لا أدري كيف؟، أفمن السماء نزلت؟، أم من باطن الأرض خرجت بعد أن شقتها، وقالت ممازحة:

- وتصطادون عصافير هنا.

ضربتها على كتفها بقوة وقلت لها:

يكفي شقاوة يا خلود.

فمثلت بأنها تقع على الأرض وصرخت قائلة:

- آه كتفي يؤلمني، يبدو أنني أصبتُ بطلق ناري.

تجمع الناس حولها، وبالكاد حاول حمزة أن يفرق هذا الجمع، وأنا أتوعدها قائلةً:

- حسابك عندما نعود إلى البيت.

فهمس حمزة في أذني:

- حتى وأنتِ في أشد لحظات غضبكِ جميلة.

فاحمر وجهي خجلاً، وتمنيتُ لو أذوب وأختفي.

بعد منتصف اليوم، وبعد مكابدة الحر والتعب، من أجل إنقاذ حياة الجرحى، قررتُ الاستئذان والعودة إلى البيت، من أجل تجهيز ما يلزمني قبل حضور حمزة لزيارتنا، واصطحبتُ معي المشاكسة

خلود، فمهما تسببت لي من إحراجات، إلا أنني لا أستطيع تسيير أموري دون وجودها قربي، وخصوصاً في مثل هذا الموقف، الذي لا أعرف ماذا أفعل فيه.

حلَّ المساء بسرعة هذا اليوم، فتجهزتُ وارتديتُ أجمل فستانٍ عندي، ووضعتُ شالةً وردية اللون، وجعلتُ أطرافها التي تبرق تنسدل على ظهري من الخلف.

وما إن انتهيتُ حتى دق جرس الباب، فدق معه قلبي وبدأ التوتر يسري إلى أجزاء جسدي، فضغطت خلود بيدها على يدي، وقالت لي مبتسمة:

- ما أجملكِ اليوم يا صديقتي! لا تتوتري، وتصرفي بهدوء.

قطع حديثنا صوت أمي وهي تستعجلني لإحضار القهوة، وقبل أن أدخل إليهم تجمدتُ في مكاني؛ لألتقط بعض أنفاسي التي حُشرت داخلي من شدة توتري، فألقت خلود بيديها على كتفي وقالت:

- هيا تقدمي، فأنتِ ملكة هذه الليلة.

دخلتُ، فصمت الجميع بعد أن كان صوتهم يصل إلى أبعد مكان في البيت، رميتُ السلام على الجميع، وزال بعض توتري بعد أن لاحظتُ وجود طفلين قرب حمزة، وأيقنتُ سريعاً بأنهما طفلاه اليتيمان، وبعد أن تناول فنجان القهوة من يدي التي كانت تهتز، همس لي:

- ما أجملكِ وكأن النور جاء للتو.

ابتسمتُ خلسةً وجلستُ قرب والدي، فتكلم والدي بعد أن كاد الصمت يفترس أجواء المكان وأخبرني:

- هذان طفلا حمزة: يزن ويامن.

ابتسمتُ لهما، فما شعرتُ بهما إلا وقد جلسا بين أحضاني، بدأتُ أتلمس شعرهما المنسدل بيديَّ، وهمستُ لقلبي المعذب:

- آه كم أعشق رائحة الأطفال!

قطع تفكيري كلام حمزة حينما قال:

- من كثرة ما حدثتهما عنكِ عرفوكِ قبل أن يخبرهم أحد.

أخذتهما برفقتي إلى الداخل؛ ليلعبا مع أخوتي الصغار، ثم عدتُ لحضور الحديث الذي سيدور بشأني، وعندما رجعتُ سألتُ حمزة:

- أين والدتك؟، لماذا لم تأتِ معكم؟

فرد عليَّ:

- والدتي متعبة وقليلاً ما تخرج من البيت، فتربيتها لأولادي كل هذه الفترة أرهقتها، وكما تعلمين أنا وحيدها، وليس لي إخوة أو أخوات.

عاد والدي لموضوعنا وسألني:

- المهم ما رأيكِ يا نور بحمزة؟، وما هي شروطكِ؟، فهو

جاهز لما تطلبين.

تغيرت ملامح وجهي، والتقطتُ أنفاسي، حتى شعر حمزة أن هناك ما لا يعجبني، فقلتُ باستحياءٍ مصطنع:

- أنا موافقة على حمزة، ولكن لديَّ شرطٌ واحدٌ.

شعرتُ وقتها بأن حمزة يغلي من الداخل، وكدتُ أفقد جديتي وأضحك، فهو يعلم أنني أريده، ولكنه الآن يتفاجأ بأنني أشترط، فقال أبي:

- تكلمي يا ابنتي، فإن كان الشيء من حقكِ تأخذيه.

صمتُّ لبضع دقائق، كانت بالنسبة لحمزة دهراً مرّ بطيئاً ثقيلاً، ولاحظتُ توتره، فنطقتُ الجوهرة أخيراً وقلتُ:

- أريد أن أُشهر زواجنا هناك قرب الحدود.

جن جنون والدي وأخذ يصرخ:

- ما هذا الهُراء؟، أنتِ تريدين فرحاً أم تريدين الذهاب إلى الموت؟

لكن حمزة أعجبته الفكرة وقال:

- الفكرة جنونية، كيف لم تخطر على بالي؟، أنا بالطبع موافق.

فنطق أبي المسكين:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الاثنان أجن من بعضهما البعض.

وكنا نتضاحك وأبي يقلب كفيه بيننا، ولا يفهم شيئاً، فقلتُ له:

- يا أبي، نحن نريد أن نقهر هذا العدو، نريد أن نوصل له رسالة بأننا - رُغماً عن أنفه - سنفرح، ولن تخيفنا رصاصاته، وسوف ننسف كل العراقيل من أجل الحصول على حياة كريمة مليئة بالفرح.

تعجب أبي وقال:

- لو أنني لستُ متأكدا من كونك ابنتي لما عرفتكِ، من أين جئتِ بكل هذه القوة؟!

كان حمزة يتنقل بعينيه بيننا وهو في قمة السعادة، فباشره أبي بالسؤال:

- وأنت يا عريس ما رأيكَ؟

فأجاب بحماس:

- بالطبع، أنا مع نور وأشد على يدها، وسترى يا عم كيف سيصبح فرحنا جزءاً من الفعاليات التي ستقام هناك بالقرب من الحدود وعلى مرأى العدو، سيغتاظ بالتأكيد عندما يشاهد بأننا نفرح رغماً عنه، وسيتزوج الجميع لنأتي بأعداد مضاعفة عوضاً عما ذهب من شهداء.

هنا آلمتني تلك الكلمة كثيراً، وفتحت في قلبي جُرحاً أحاول نسيانه، حاولتُ حبس دموعي إلا أنها ذُرفت، وكأنها تعاندني، فخبط حمزة رأسه بيده، وتمنى لو يختفي في ثيابه بعد أن لاحظ ما قاله، ووقف أمامي منتصباً، وكأنه يأمرني بأن أذبحه وقال لي:

- والله! ما قصدتُ ما قلتهُ صدقيني، ودمعت عيناه.

- أعرف يا حمزة أعرف.

كان بوده أن يضمني بين ضلوع قلبه، ولكن لم أصبح حلاله بعد، حاولتُ أن أغير الجو، فقلتُ:

- سأذهب لأطمئن على يزن ويامن.

فقال لي:

- أرجو أن تناديهما لنغادر، فلقد أصبح الوقت متأخراً، غداً نلتقي؛ لنعلن للعالم أننا نحب الحياة ونبحث عن الفرح، حتى وإن كان بين رصاصات العدو.

قبلتُ يزن ويامن عند الباب، فهمس لي:

- وأنا ليس لي أي نصيب من هذا؟

فاحمر وجهي خجلاً من كلامه، ثم لوح لي بكفه حتى ابتعد، وغادرت خلود؛ لتدع لي المجال لأجلس مع نفسي وأفكر، كيف سيكون غداً؟، وكيف ستكون الأيام القادمة؟

بالطبع، كان الليل سريعاً في الانجلاء هذه المرة، وبدأت عصافير الفرح تزقزق مع شروق الشمس، وقمتُ سريعاً - على غير عادتي - أغني للحب ولفيروز، وكان أبي في غاية السعادة، فملكته اليوم ستكون في أبهى حُلة، مضى الوقت مسرعاً مهرولاً، وجاء الشيخ برفقة حمزة وتم كتب الكتاب، وكنتُ في غاية الفرح وقتها، ولأول

مرة أشعر بأن الأمان قد تضاعف في قلبي.

وبعد يومين، قمتُ بمساعدة حمزة؛ لتجهيز ما يلزمنا لعمل الإشهار قرب الحدود كما اتفقنا سابقاً، وقررتُ لبس الثوب الفلسطيني المطرز، وأصبحنا مستعدين للانطلاق، لكني لم أستطع أن أصطحب والدي معنا إلى هناك، فالمكان بعيد بالنسبة له، فقال لنا:

- لا زلتما مُصران على الذهاب إلى الحدود والاحتفال هناك.

فبادر حمزة بالرد هذه المرة، وكان متشجعاً أكثر مني لعمل الحفل هناك، وقال:

- لا تقلق يا عم علينا، فلن نتأخر عليك.

وصلنا إلى هناك، ولم أكن قد لبستُ الثوب بعد، فدخلتُ إلى إحدى الخيم المقامة هناك، وجهزتُ نفسي بمساعدة خلود ومجموعة من الفتيات اللواتي كن هناك، وعندما خرجتُ من الخيمة وقفتُ بجانب حمزة وأعلنا خطبتنا أمام الجميع، فبدأت مجموعة كبيرة من الشبان بالاصطفاف، وبدأوا برقص الدحية، وبتمايل الأكتاف، وتصفيق الأيادي، كان المنظر في غاية الروعة والجمال، فقد تفاجأتُ من تفاعل الجميع معنا، حتى أن مجموعة من النسوة بدأن بإلقاء المواويل والزغاريد، التي أضافت نكهة خاصة للفرح الفلسطيني، وما أجمله من شعور بأن تفرح على مرمى قريب من بنادق عدوكَ! حتى أن الباعة

المتجولين هناك بدأوا بتوزيع الشاي والقهوة على الموجودين بالمجان.

كانت عيون الحاضرين تهتف وتقول: «إن على هذه الأرض ما يستحق الحياة»، ومن ضمن الفعاليات التي قام بها الشبان، أنهم قاموا بحمل حمزة على الأكتاف، ثم ناولوه العلم الفلسطيني، الذي أخذ يرفرف بين يديه عالياً في سماء الوطن، وبالطبع أوصلنا رسالة قوية لذلك العدو الجبان، الذي يحتمي خلف بنادقه، أننا سنعود يوماً ما، وبأن العودة حق كالشمس.

وبحمد الله تمت أجواء الفرح على ما يرام، ولم يخدش أحدٌ في هذا اليوم برصاصة واحدة، رغم محاولات العدو المتكررة برمي قنابل الغاز المسيل للدموع لإطفاء الفرح، وعاد الجميع إلى بيوتهم سالمين.

وبالطبع، كان علينا أن نعود مسرعين إلى البيت، فهناك أبي الذي يغلي قلبه الآن علينا، فأسرعنا بأخذ بعض الصور التذكارية مع بعض المهنئين، وتوجهنا إلى البيت بأقصى سرعة، وعند دخولنا إلى المنزل، أخذ أبي يخاطبنا بلهجة الغاضب:

- الحمد الله على السلامة، الحمد لله أنكما شرفتما، افتكرتُ بأنكما ستبيتان هناك.

كان الأب غاضباً جداً، فحاولت نور أن تُهدئ من روعه:

- لا يا والدي، الحمد لله لقد تم كل شيء على ما يرام.

وواصلت حديثها وهي في غاية النشوة والسعادة:

- لقد كان يوماً من العمر، أنا سعيدة جداً يا أبي.

هدأ الأب قليلاً عندما رأى كمية السعادة التي تغمر ابنته وقال:

- يا ابنتي، أنا لا أتمنى من هذه الدنيا سوى أن أراكِ فيها سعيدة، ربي يتمم لكِ على خير.

وضمني إلى صدره الحنون، حتى شعرتُ بأني طفلة صغيرة بين أحضانه، ما أجمله من شعور، طال عناق أبي لي، فبدأ حمزة يتنحنح وقال:

- نحن هنا.

فضمه والدي إلينا، وتعانقنا ثلاثتنا، وبعد ذلك اعتدل كل منا في جلسته، وبدأ أبي بالحديث موجهاً كلامه لحمزة:

- اسمع يا ولدي يا حمزة، أنت الآن ابني وأعز، أريد أن تعرف أن نور أغلى ما أملك، ومن اليوم صارت ملكك، فكن لها العون في هذه الحياة، أريد أن أطمئن عليها قبل أن يأخذ الله أمانته، دمعت عيناي وقلتُ:

- لا تقل هذا يا أبي.

فرد عليَّ بحكمة:

- يا ابنتي، الأعمار بيد الله، والموت علينا حقٌ.

فقال حمزة:

- لا تقلق يا عم، فنور أصبحت حياتي، فكيف لا أهتم بحياتي؟! فمنذ أن رأيتها فتح الله قلبي المقفل منذ سنين، فهي من أعادت ترميمه من الداخل، وكأنني شعرتُ بأنني ولدتُ من جديد، بفضلها أصبح قلبي كالبستان بعدما تنفستُ الحب.

قلتُ لحمزة بمرح:

- الله عليكَ يا حمزة، وتعرف كيفية التحدث عن الحب!

فغمز لي وقال:

- قلبي هو من يتحدث، وأنتِ من أنطقته.

وبالفعل تغيرت حياتي، أصبحتُ أحب الحياة أكثر، تجرعتُ مع حمزة كؤوساً من السعادة، فقد كان بالنسبة لي السند الذي تمنيته ومللتُ وأنا أنتظره إلى أن جاء أخيراً.

وتعرفتُ أكثر على والدة حمزة، كانت بالنسبة لي كالأم من شدة طيبتها، وأحببتُ طفليه، فقد أصبحا قطعةً من قلبي، وتعلقتُ بهما كثيراً حتى أنهما يناديانى بماما، يا إلهي ما أجملها من كلمة عندما تخرج من فم طفل بريء! لا يعرف من هذه الحياة شيئاً، إلا أنه جاء إليها ليلعب ويلهو.

استمرت خطبتُنا ما يقارب الشهر، وبدأنا بالتجهيز للزواج والاستقرار، فقد تعلق يزن ويامن بي كثيراً، وكان لا بد من الإسراع في الزواج، من أجل أن يستقر الطفلان بين أبوين محبوبين، ويعيشا

في أجواء أسرية كباقي الأطفال.

في ليلة سرمدية، كنتُ خارج البيت برفقة حمزة، نشتري بعض الأشياء اللازمة لبيت الزوجية، كنتُ أحاول وأصر ألا أطلب الكثير، فكل ما أحتاجه فقط هو السعادة مع رجلٍ يحبني رغم كل ما ينقصها، وفي طريق عودتنا إلى المنزل اتصلت أمي وكانت تبكي وتصرخ وأخبرتني:

- والدكِ متعبٌ جداً يا نور، ولا أدري ماذا جرى له!

وكأن صاعقة قد نزلت على أذني، فأصبحتُ أصرخ كالمجنونة:

- أبي، أبي!

وهرولتُ مسرعةً بعد أن رميتُ كل ما أحمله من أغراضٍ في يدي، وحمزة يحاول اللحاق بي وتهدئتي:

- إن شاء الله خير يا نور.

عند وصولي إلى البيت وجدته ملقى على سريره وبالكاد يلتقط أنفاسه، ويشعر بألم في صدره، فأيقنتُ بأنه قد تعرض لذبحة صدرية حادة فصرختُ:

- حمزة إسعاف بسرعة!

تم نقله إلى المستشفى، وكان في غاية التعب والإرهاق، كنتُ أرتجف بشدة ودموعي لم تتوقف، وحمزة يُهدئ من روعي ويضمني

بكلتا ذراعيه، شعرتُ بالأمان بين أحضانه، شعرتُ بأن لي سنداً في غياب أبي، وصلنا إلى المستشفى، وتم إدخاله إلى العناية المشددة، فقد كان وضعه صعباً جداً، هدأتُ قليلاً وحاولتُ أن ألملم ضعفي وخوفي على أبي الذي لا أتصور ولا أفكر في أن يرحل عني، وكأنه قد ضمن بأنني سأكون بخير ليرحل.

كنتُ في صراع مع نفسي وقلتُ:

- لا.. أرجوكَ لا تتركني يا أبي، فلا أزال تلك الطفلة الضعيفة المعذبة التي تحتاجك جانبها.

ذهبتُ بعيداً عن الجميع وتكورتُ على نفسي في إحدى أروقة المستشفى، كنتُ أحدث نفسي وأبكي بصمتٍ، فلا أريد لأحدٍ أن يسمعني، حتى سمعتُ صوت حمزة يناديني، وقد كان يبحث عني هنا وهناك.

همستُ:

- لا تخف يا حمزة، أنا قريبة منك، هرع نحوي قائلا:

- نور ما بكِ؟، أخيراً وجدتكِ، لماذا تجلسين هكذا؟

بكيتُ وقلتُ:

- أبي يا حمزة، أنا خائفةٌ عليه.

ربت على كتفي وقال:

- ادعِ له، أنتِ مؤمنة وما عرفتكِ إلا قوية مهما كانت الظروف.

سألتُ حمزة:

- هل من أحد خرج ليطمئننا عليه؟

اضطرب حمزة ولم يعرف ماذا يجيب، فقال:

- بالطبع يا نور، خرج أحد الممرضين لتوه وأخبرني.

- شعرتُ كم حمزة يحبني، فبرغم كلامه المتوتر، الذي دلَّ على أنه يكذب عليَّ، إلا أنني شعرتُ ببعض الراحة.

وأخيراً، وصلت خلود لتقف بجانبي، فكم أنا بحاجة لقربها في هذه اللحظات، مسحت دموعي بأناملها الحنونة، وقالت:

- لا ينفعنا البكاء، هيا نجلس ونقرأ بعض القرآن.

هدأ قلبي قليلاً، وسمعتُ كلامها، وبعد أن هدأت قريرتي، تذكرتُ أمي التي تركناها تبكي في البيت ولم تستطع المجيء معنا مخافة أن تترك إخوتي الصغار لوحدهم، فطلبتُ من حمزة أن يهاتفها ويطمئن بالها، فقالت خلود:

- طمئنوا قلبها، فهي من هاتفتني وأخبرتني وكانت تبكي بحرقة، فلا أحد منكما يرد على هاتفه.

حاول حمزة إقناعي بالذهاب إلى البيت برفقة خلود، ولكني رفضتُ وقلتُ والدموع تنساب لوحدها دون إذن مني:

- لا أستطيع ترك أبي لوحده هنا، سأسهر على راحته، ومهمتي

بالأصل هكذا، ولكن لماذا لا يسمح لي بالدخول إليه؟، لا تقلقوا، أنا قوية وبوقوفي إلى جانبه سأكون أكثر ارتياحاً، وبالتأكيد سيشعر بقربي، ويتعلق بالحياة من أجلي.

فقال لي حمزة بحنان:

- أرجوكِ اهدئي، وأنا بنفسي سأدخلكِ عنده، كفي عن البكاء فحسب.

- صحيح يا حمزة.

- بالطبع يا نور، انتظري قليلاً.

تحاور حمزة مع الطبيب المختص، وقبِل بدخولي عند والدي، والسهر على رعايته.

قال لي الطبيب:

- هيا يا نور، ادخلي وابدئي عملكِ، لكن أرجوكِ تماسكي، فوالدكِ وضعه حرجٌ جداً.

فقلتُ بانفعال:

- أبي سيعيش ويعود إلى البيت معي في الغد، هو وعدني بألا يتركني أبداً.

ضمني حمزة إلى صدره بحنان، وشعرتُ بأنه يحاور طفلته الصغيرة عندما قال:

- إن شاء الله يا نور، لا تقلقي.

وجهتُ كلامي لخلود وقلتُ:

- خلود، أرجوكِ خذي الإذن من والدتكِ، واذهبي للمبيت عند أمي.

ثم التفتُ لحمزة وطلبتُ منه:

- وأنتَ يا حمزة، اذهب واسترح عند أولادكَ.

- لا أستطيع أن أذهب وأتركِ.

فتوسلتُ إليه قائلة:

- اذهب أرجوك، فالأطفال وحدهم منذ الصباح، وأمك متعبة.

ذهب حمزة بعد إصراري العنيد، مع أنني كنتُ بحاجة له كثيراً، كنتُ بحاجة إلى وقوفه بجانبي؛ لكي أقوى به، ولكن في نفس الوقت أريد أن أكون لوحدي قرب أبي، استجمعتُ كل قواي ودخلتُ، وعندما شاهدته بهذا المنظر كدتُ أنهار، أريد أن أصرخ، أبكي، يا إلهي! كل هذه الأجهزة تحيط بجسده من كل جانب، وجهاز القلب يصدر صوته المزعج، وكأنه يعد نبضات قلبه، أمسكتُ بيده، فضغط على يدي، فابتسمتُ رغم حزني وقلتُ لنفسي:

- إنه يشعر بوجودي.

فأخذتُ أحادثه وكنتُ على يقين بأنه يسمعني، فهمستُ له:

- أرجوكَ يا أبي لا تتركني، فأنا قوية بوجودك بجانبي.

وبدأتُ بالبكاء حتى نمتُ على كفه دون أن أشعر من كثرة ما بكيتُ، وما استيقظتُ إلا على جرس يدوي في المكان، فقمتُ فزعةً أبكي وأصرخ، فجاء الطبيب مسرعاً، وقام بعمل تخطيط سريع للقلب، وأخرجوني من عنده بالقوة؛ لكي يتمكنوا من متابعة عملهم، سمعتهم يقولون:

- عاد وضعه يستقر.

فهدأتُ قليلاً، خرج الطبيب من عنده يتصبب عرقاً، وقال لي:

- لقد تم إنقاذه، ولكن لا أخفي عليكِ، قد تحدث له بعض المضاعفات.

عندما سمعتُ ما قاله الطبيب، بدأتُ بالصراخ، وبكيتُ حتى احترق قلب من حولي، ومن بعدها أغمي عليَّ. عندما أفقتُ وجدتُ حمزة يجلس قرب رأسي، وعيناه كادتا تنفجرا من البكاء، فصرختُ:

- ماذا يحدث؟، وأين والدي؟، تذكرتُ ما حدث قبل ساعة، فبدأتُ بلطم وجهي وحمزة يحاول تهدئتي ويقول لي:

- ما بكِ يا نور؟، أنتِ إنسانة مؤمنة.

فقلتُ له:

- أنا السبب يا حمزة، فلو أنني لم أغف لما حدث ما حدث.

- لا تقولي هذا، وانهضي؛ لنقرأ له بعض آيات القرآن الكريم، وندعو الله أن يخفف عنه.

هدأتُ قليلاً لا أعرف لماذا.. هل لأن حمزة قربي؟، أم أن الله ألهم قلبي الصبر؟، توجهتُ مع حمزة إلى أحد المقاعد الفارغة في المستشفى، وقال لي بهدوء:

- اجلسي هنا، سأذهب وأحضر لكِ العصير؛ لكي تهدئي، لن أتأخر، دمعت عيناي من شدة طيبة حمزة وحنوه عليّ وحنانه معي، وتذكرتُ حديث أبي عندما قال لي:

- أريد أن أطمئن عليكِ قبل أن أغادر الحياة مع إنسان يخاف الله فيكِ.

لا أعلم.. هل الإنسان يشعر بقرب أجله، لينطق كلاماً مثل هذا؟، دبَّ الخوف في قلبي من جديد، وبدأتُ بالبكاء بصوتٍ مسموع، وعندما سمع حمزة صوت بكائي هرع إليَّ كالمجنون، وضمني إليه بقوة وقال لي:

- لا تخافي، فأنا قربكِ.

طلب مني أن أشرب العصير إلى أن يعود، فقلتُ له:

- إلى أين يا حمزة؟

- سأذهب وأتوضأ لأقرأ بعض آيات القرآن.

سرحتُ في كلامه وتمتمتُ قائلةً:

- لقد عوضني الله بهذا الرجل الشهم، نعم، هو من عند الله، فمن يقبل الزواج بامرأة لن تستطيع أن تنجب له أطفالاً، فوسوس إليَّ الشيطان بأن له طفلين وهو مكتف بهما، صوته قطع تساؤلاتي عندما قال:

- سعيد جداً؛ لأنك شربتِ زجاجة العصير كلها.

حقاً، نظرتُ إليها، فوجدتها فارغة، رغم أنني لم أشعر بأني شربتها، وكأن الجوع هو من التهمها، فأنا لم أتذوق الطعام منذ وصول أبي إلى المستشفى.

جلس حمزة وبدأ يرتل بعض آيات القرآن، كان صوته عذباً جداً، ارتجف له قلبي وارتحتُ لسماعه، فوقفتُ على قدميَّ، ونسيتُ تعبي، اقتربتُ منه وجلستُ قربه، فهز رأسه، ففهمتُ بأنه سعيد لسماعي له، ثم وقفتُ فجأة، وحدثتُ نفسي:

- أين أنا من آيات القرآن؟، حقاً أنا مقصرة.

فتوقف حمزة عن الترتيل وقال لي:

- إلى أين يا نور؟

فأجبته مبتسمة:

- سأذهب لأتوضأ.

كنتُ أريد إحياء هذا القلب الميت منذ سنين، لا أعرف ربما ليس ذنبي، فلم أجد لي ناصحاً منذ طفولتي.

ابتسم حمزة وقتها ابتسامة ساحرة، وعندما عدتُ قال:

- نور، أنا سعيدٌ بك.

- بل أنا المحظوظة بكَ.

قطع حديثنا صوت الطبيب ينادي علينا، فطلب مني حمزة التوقف قائلاً:

- ابقي هنا، سأذهب وأرى ماذا يريد الطبيب.

- ولكن حمزة أنا قلقة.

- اهدئي يا نور، نحن مؤمنون.

حاولتُ تمثيل الهدوء، لكنه أبي، حياتي التي أعيشها، عاد حمزة أخيراً، لكنه ليس حمزة الذي أعرفه، عاد مكفهر الوجه وعلامات البؤس تكسو ملامح وجهه، فسألته بصوتٍ متزعزع:

- حمزة، ماذا هناك؟

فأمسك كلتا يديَّ حتى أشعر ببعض الهدوء والاطمئنان، ثم أخبرني:

- نور، والدكِ تعرض لتشنجات، والأطباء الآن يحاولون إنقاذه.

ارتجفت يداي بين يديه، فحاول الضغط عليهما بكل قوة؛ لكي لا أرتجف، تحكم في يديَّ، لكنه لم يستطع التحكم في نزول الدمعة من

عينيَّ، فضمني بقوة إلى جسده حتى شعرتُ بأنني دخلتُ جسده، فجفت دموعي تلقائياً، حتى أنني تقبلتُ الخبر بهدوء عندما قال لي:

- لا تقلقي، فالأطباء يعملون جاهدين ليعود إلينا.

فقلتُ له بتلقائية:

- وربما لن يعود بعدها.

تفهم حمزة بأن ما تقوله نور، تقوله دون وعي منها، فهو الأعلم بحالتها وما تمر به الآن، قد مر به عندما فقد زوجته الأولى، صحيح أنه لم يفصح لها عن هذا، لكن عينيه وقلبه تكلما، فهي وإن فقدت رحم الأمومة تبقى امرأة.

مرت عشرة أيام ووالدي لا يزال متعباً ووضعه غير مستقر، كان حمزة يغادر المستشفى للاطمئنان على صغاره، أما أنا فمنذ دخول أبي المستشفى، وأنا معه لم أخرج، حاول حمزة إقناعي بالذهاب إلى المنزل؛ لأستريح وأرى إخوتي الصغار وأمي التي ساءت صحتها كما أخبرتني خلود منذ دخول والدي إلى هنا، وأنا أعانده، إلى أن اهتدى لفكرة حبي الشديد لطفليه، فأخبرني بعد أن ادَّعى الحزن فقلتُ له:

- ما بك يا حمزة أراك اليوم غير مطمئن، والقلق يظهر عليكَ؟

فقال لي بعد أن تأمل ملامح وجهي:

- بصراحة يزن ويامن في كل مرة يسألان عنكِ، وعن سبب

غيابكِ الطويل عنهما، واليوم وعدتهما بأنكِ ستأتين لرؤيتهما، فأرجو ألا أكون كاذباً أمامهما.

صمتُ لبعض الوقت، فأنا بالفعل اشتقتُ لهما وقلتُ:

- هيا نذهب لرؤيتهما، فأنا أيضاً مشتاقة لهما.

- كم أنتِ طيبة القلب! حقاً ولداي محظوظان بكِ

- فقط ولداك؟

فحك رأسه وقال:

- أنا أيضاً.

مضيتُ إلى البيت أولاً واطمأننتُ على أمي وأخوتي، كانت أمي متعبة بعض الشيء، لكني طمأنتها بأن والدي بخير؛ ليستريح قلبها، ثم خرجتُ برفقة حمزة لرؤية صغيريه، فلا أريد التأخر عن أبي، وفي طريقنا إليهم، طلبتُ من حمزة أن نشتري بعض الأشياء ليزن ويامن، فقال حمزة:

- أنتِ حرة، لن يدعاكِ تغادرين طالما تأتين بكل ما يغريهما.

ابتسمتُ رغم حزني، وعند وصولنا، استقبلني الطفلان بالأحضان والقُبل، ورأيتُ في عيونهما السعادة والفرح، جلستُ معهما، ولم أشعر بالوقت كيف مضى سريعاً، فقفزتُ كالمجنونة وقلتُ لحمزة:

- لقد تأخرتُ على والدي يا حمزة كثيراً.

فهممتُ بالمغادرة، إلا أن الطفلين تعلقا بكتفي، لا يريدان تركي، فوعدتهما بالمجيء مرة أخرى ومعي الكثير من الهدايا، وخرجتُ برفقة حمزة بعد أن أصر على إيصالي.

ونحن في الطريق رن هاتف حمزة، وتغيرت ملامح وجهه، فسألته كالمجنونة:

- ماذا هناك يا حمزة؟

حاول التماسك وقال لي:

- هاتفي لصديقتكِ خلود للحاق بنا إلى المستشفى.

شعرتُ بأن مكروها قد أصاب والدي، فرجوته أن يتكلم، لكنه رفض الحديث وقال:

- لا أريد التحدث في الشارع.

وصلنا المستشفى، فوجدتُ خلود قد سبقتنا، وكان وجهها شاحبا، وعندما لمحتني هرعت إليَّ، وكانت عيناها كالجمر من حرارة الدمع، فقلتُ لها:

- ماذا يجري؟، أنا لا أفهم شيئاً.

فصمت كلاهما والحزن يحوم بين عيونهما، فصرختُ بهما كالمجنونة:

- أخبراني، أين أبي؟

فقال لي حمزة بعد أن رأيتُ الدمع لأول مرة في عينيه:

- نور.. والدكِ في ذمة الله.

وقع الخبر على مسامعي كالصاعقة، وبدأتُ أبكي وأجري بين ممرات المستشفى وأقول:

- أين أبي؟، أريد أبي، إنه ينتظرني.

لحقت خلود بصديقتها، لتمسك بها، أما حمزة فكان في حالةٍ يرثى لها، لم يستطع رؤية محبوبته بهذا المنظر، فأخذ يبكي ويداري دموعه التي تساقطت رُغماً عنه.

أمسكت بي خلود وقالت:

- نور، اهدئي أرجوكِ يا صديقتي.

- يا ليتني لم أتركه، يا ليتني لم أذهب من هنا كم أنا حمقاء!

- لا تقولي هذا يا نور، نحن مؤمنون.

استمر بكائي بصورةٍ تشبه النحيب.. جاء حمزة من بعيد باكيًا، وهزني بقوةٍ وقال:

- لا تعذبيني وتعذبي أباكِ، كفي عن الصُّراخ.

هدأ نحيبي وتوقف بكائي فجأة، وكأن قوتي فرغت، فضمني حمزة إلى صدره وقال لي:

- هيا ندخل لوداعه، قبل أن يشيعوه.

فطلبتُ منهما التوقف وقلتُ لهما:

- أريد أن أدخل إليه أولاً لوحدي.

فوافق الجميع على مضضٍ، دخلتُ وكان ممدداً على السرير بلا حراك، ووجهه هادئ متبسم، تحسستُ جسده بيدي المرتجفتين، وبكيته همسًا، كنتُ أريد أن أعاتبه لتركه لي باكراً، فأنا لا أزال طفلته الصغيرة التي تحتاج إليه، اقتربتُ منه أكثر وأخبرته والدموع تنهال على وجهي دون إرادة مني.

- ها أنا اليوم يا أبي سأُقبلك القُبلة الأخيرة.

دخل عليَّ حمزة بعد أن شعر بطول مكوثي قرب أبي، دخل وشاهدني أحضن جسده الذي لم تعد فيه الروح، فضغط على كتفيَّ؛ ليواسيني في مصابي الجلل وقال لي:

- ادعِ له بالرحمة، فهو الآن بين يدي الله، أعدكِ يا نور أن أكون لكِ الأب الحنون والزوج الصالح.

كلام حمزة أراح قلبي الحزين، رغم علمي بأن لا أحد يأخذ مكان أحد، والمكان الذي يصبح فارغاً يبقى فارغاً أبد الدهر.

أتم حمزة إجراءات الوفاة في المستشفى، وحُمل جثمان والدي إلى بيته، الذي لم يعد ذلك البيت الذي تدب فيه روح الحياة والأمان، احتضنه الجميع وبكاه الصغار والكبار.

مضت أيام العزاء، ولم يكن أحد ليصدق أنني أحمل كل هذا الهدوء، فلم أذرف دمعة واحدة أمام الحاضرين، حتى أن حمزة استغرب سكوتي الذي حمل في قلبه علامات الخوف والقلق من أن يصيبني مكروه بعد أن يغادر الجميع.

غادر الجميع وخيم الصمت على البيت، حتى ظننتُ أننا أصبحنا أشباحاً داخله، ولم يبقَ حولنا سوى حمزة وخلود، حاولت خلود الحديث معي، لكنني لم أتفوه بكلمة واحدة، وغادرتُ المكان واتجهتُ إلى غرفتي.

فقال حمزة لخلود:

- أنا خائفٌ عليها، الحقي بها.

فأخبرته خلود:

- اتركها اليوم؛ لتستريح، فالكلام معها لن يجدي نفعا، أنا أعرف نور جيداً.

استأذن حمزة وقال:

- خذي بالك من نفسك ومن نور والصغار يا خالة، وأنا سأغادر اليوم لرؤية الصغار، فهم لوحدهم منذ الصباح والوالدة مريضة كما تعلمين، تواصلي معي إن احتجتم لشيء.

- توكل على الله يا بني، فأنت حقاً لم تقصر معنا، كما كان يقول

لي أبو محمد أنك ستكون سنداً لنا، كان دائماً يقولها، وكأنه كان يشعر بدنو أجله.

- لا تقولي هذا الكلام، أنتم أهلي.

قالت خلود:

- وأنا سأغادر اليوم، انتظر يا حمزة لنخرج معاً.

مضى أسبوع على وفاة والدي، وأنا على حالي لا أكلم أحداً، ولا أخرج من غرفتي، وبالكاد أشرب قطرات من الماء؛ لتقويني على الحياة التي لم أعد أرغب بها.

حاولت خلود إخراجي من دائرة الحزن التي أحبس نفسي بها، لكن دون جدوى، وحاول حمزة معي مراراً، لكن بلا جدوى.

اهتدت خلود إلى نقطة ضعفي، من أجل إخراجي مما أنا فيه، فلجأت إلى حمزة وقالت له:

- حمزة، اذهب وأحضر يزن ويامن.

حاول حمزة فهم مراد خلود، فابتسم وقال:

- حقاً، كيف لم يخطر ببالنا يزن ويامن، سأعود سريعاً.

كنتُ أغلق الباب على نفسي من الداخل، حتى لا يدخل عليَّ أحدهم، فلم أعد أرغب بالسير في هذا البيت، أشعر أنه مخيف بعد أن ذهبت منه روح أبي.

وصل حمزة وبرفقته يزن ويامن.. أخذ الصغيران يطرقان باب الغرفة بأيديهما الصغيرة، شعرت نور بأن الطرق خفيفٌ وناعم، لكنها تعصبت وقالت:

- لا أريد الحديث مع أحد، راعوا ظروفي أرجوكم، فأنا متعبة.

لكن الصوت الذي صدر من خلف الباب كان لطيفاً حنوناً، سمعتهما يقولان:

- ماما نور افتحي لنا الباب، نحن يزن ويامن.

شعرت نور بأن قلبها يريد أن يقفز من مكانه وقالت في نفسها:

- ياااااه ماما نور، ما أجملها من كلمة!

وهرعت نور لفتح الباب واحتضانهما، شعرت كم هما محتاجان لها، فقد مرا بما تمر به الآن، فقدا الحنان مثلها، لذا قررت أن تخرج مما فيه، وتحاول تعويضهما قدر المستطاع عن حنان الأم.

غمزت خلود حمزة وقالت له:

- أخيراً، وجدنا دواء نور.

وحاول حمزة أن يغير جو الحزن الذي يخيم على هذا البيت فقال:

- آه يا عم، الخروج من الغرفة لناس وناس.

ابتسمتُ رغماً عني، وحاولتُ أن أتناسى حزني، فحقاً هناك من يحبني ويحتاج لقربي، وبدأتُ أعود للحياة تدريجيا، من أجل الطفلين

ومن أجل من أحبني من قلبه بصدق.

كان حمزة لا يزال يعمل مسعفاً عند الحدود لمسيرات العودة، أما أنا، فقلبي هناك مشغول، لكني لم أعد أذهب إلى هناك، فقد انشغلتُ بالاهتمام بإخوتي الصغار ومساعدة أمي والطفلين اللذين جعلا حياتي جميلة بعد أن كاد الحزن يسيطر عليها، فكنتُ فقط أطلع على الأحداث التي تجري هناك دون الذهاب أو المشاركة.

خرجتُ من حزني فعلاً بفضل يزن ويامن، فعرض عليَّ حمزة أن نتزوج، خصوصاً أنه أصبح كثيراً ما يخرج للعمل في الليل؛ لإسعاف هؤلاء الشبان الذين عادوا للخروج ليلاً وعمل الإرباك الليلي، للضغط على العدو بفك الحصار، وتركِ هذا الشعب يعيش بكرامة، وكان هدفه أنه لا يريد ترك أطفاله وأمه لوحدهم في الليل، فكنتُ أتهرب منه وأقول: مكتبة .. سُر مَن قرأ

- لا أريد الزواج يا حمزة إلا بعد سنوية أبي.

فكان متفاهماً لدرجة كبيرة، خصوصاً أن الجو الأسري داخل البيت لا يزال يعيش تحت غيمة الحزن التي لم تزل بعد.

في إحدى الليالي كان حمزة قد جاء عندنا برفقة طفليه، وطلب مني أن يبيتا عندي، استغربتُ رغم سروري بهما وقلتُ له:

- ما الأمر يا حمزة؟

فقال لي والدم يغلي في عروقه:

- ربما يكون الإرباك الليلي هذا المساء عنيفاً.

فتساءلتُ:

- لماذا؟، ما الأمر؟

فرد:

- الشبان في غضب شديد، بسبب قتل العدو للأطفال الأبرياء بدمٍ بارد.

- صدقت يا حمزة، فكل يوم شهيد ولا ندري إلى متى؟

فرد باستياء:

- لا أحد يعلم إلى متى.

استأذن حمزة فقلتُ له:

- خذ بالك من نفسك.

فقال مبتسماً:

- هل أنتِ خائفةٌ عليَّ؟

فأجبته:

- ومن لي غيرك يا حمزة بعد الآن؟

هم حمزة بالمغادرة إلا أنني تذكرتُ أمه فقلتُ له:

- توقف! هل أمك ستنام لوحدها؟

- لا تقلقي، جارتنا ستبيتُ عندها الليلة.

- لن أنام الليلة إلى أن تعود.

لم يعد حمزة ليلتها، فزاد قلقي، وعندما حلَّ الصباح طرق الباب، فكان حمزة، فتعصبتُ وقلتُ له:

- أين أنت؟

فقال اهدئي:

- لقد تأخرتُ كثيراً في الليل، فقررتُ أن أعود في الصباح؛ لآخذ يزن ويامن، هل أزعجاك؟

- لا أبداً، لا يريدان الرحيل من هنا، لقد استيقظا فرحين عندما وجداني قربهما. فتبسم حمزة وقال:

- ألم أقل لكِ، ألم يحن الوقت لنتزوج؟

فقلتُ له مبتسمة:

- بعد أشهر تنتهي سنوية أبي ونتزوج، لا تقلق، لن أهرب منك.

مضت الأيام، وخلال أشهر قليلة كان عليَّ أن أجهز نفسي للفرح، وبين ليلة وضحاها كنتُ أعيش وسط عائلة كبيرة من زوج وأبناء، فقد عشنا جميعاً في بيت والدي الذي رفضتُ تركه أو الرحيل عنه، وترك والدتي وحدها، فقد كانت بحاجة لقربي منها بعد أن تراجع وضعها الصحي، فلم تعد تقوى على تربية إخوتي الصغار

وتلبية متطلباتهم.

وافق حمزة على أن نعيش جميعنا في هذا البيت المتواضع، وجاءت والدة حمزة للعيش معنا، بعد أن أصررتُ على إتيانها وعدم تركها للعيش وحدها، فهي لا تقوى على خدمة نفسها، حتى أن أخي الصغير عبود أصبح ينادي حمزة «بابا» مثل يزن ويامن.

مرت الأيام وكنتُ سعيدة جداً بزواجي من حمزة، فقد كان طيباً جداً، فلم أشعر معه بالفقد أو الوحدة، وكانت إجازاته قد قاربت على الانتهاء، ولا بد من عودته للعمل في الميدان، خصوصا بعد أن عاد الشبان إلى وحدات الإرباك الليلي من جديد، بعد أن انقطعوا عنها لفترة، وذلك من أجل الإصرار على فك الحصار المستمر على غزة، وللرد على جرائم الاحتلال المتكررة باستهداف الأطفال المتواجدين قرب الحدود، الذين يذهبون مع ذويهم المشاركين بطريقة سلمية، فلا أحد من المتظاهرين هناك يحمل سلاحاً أو قنبلة، ومع ذلك فإن العدو الجبان يستهدف الشباب والأطفال بالقنص بالرأس أو إطلاق الرصاص المتفجر على الأطراف السفلية، مما يؤدي إلى تهتك العظام أو بتر الأطراف.

قال لي حمزة حيث كنا نتسامر:

- من الغد سأنزل إلى الميدان.

فقلتُ له لأجس نبضه:

- ما بك يا رجل مستعجل للخروج من عندي؟

فرد عليَّ بكل حبٍ وحنان:

- أتمنى أن أبقى جالساً قربك طول العمر، ولكنه الوطن يا نور، هو من ينادي، ومهمتي أن أسعف من يثأر بدمه من أجل الوطن.

- أعرف يا حمزة، آه لو أستطيع العودة إلى الميدان، ولكن كما ترى مهمتي أصبحت كبيرة جداً في البيت.

- لا عليكِ يا نور، فتربيتكِ لهؤلاء الأطفال جهادٌ عظيم، فهم الجيل القادم لاستمرار المعركة التي بدأت.

- المهم أن تأخذ حذرك، فلا أريد لوعةً أخرى لقلبي المنهك.

- أتخافين عليَّ يا نور؟

- وهل تبقى لنا سندٌ غيرك في هذه الحياة؟، عدني أن تأخذ بالك من نفسكَ.

- أعدكِ، ولكن....

- لا تقل لكن أرجوك، فلا تخف! أنا لا زلتُ مؤمنة بقضاء الله.

- ما أعظمكِ يا نور!

- هذا لأنني زوجتك.

فدثرني بين ذراعيه حتى شعرتُ بأنني أملك العالم بأسره،

فشكرتُ الله على هذه العطية التي ما كنتُ سأملكها إن بقيتُ حبيسة الجدران وكلام الناس.

حلَّ المساء واقترب موعد خروجه للعمل لدى فعاليات الإرباك الليلي، فأصررتُ ألا يخرج قبل أن يتناول العشاء مع الأولاد، وبعد أن نام الجميع عزم على الرحيل، فناولته حقيبة مليئة بالسندويشات فقال لي:

- ما هذا يا نور؟، قبل قليل تناولنا العشاء.

فقلتُ له مازحة:

- هذا الطعام ليس لك.

فقطب حاجبيه وقال:

- ولكن لمن؟

فقلتُ له:

- من أجل الشباب الثائرين هناك.

فنظر لي نظرة شموخ وقال:

- ما أروعكِ يا نور! وما أكبر قلبكِ!

وهمَّ بالمغادرة إلا أنني أوقفته بلهجة غاضبة فقال لي:

- هل لا يزال هناك شيء؟

فقلتُ له بدلال:

- كيف تريد الذهاب قبل أن أسترق قُبلةً منك؟

غادر، فصحتُ به:

- لن أنام قبل أن تعود.

خرج فأشغلتُ نفسي بأعمال البيت حتى لا أشعر بالوقت، أو بأن غيابه قد طال، وبعد انتهائي من أعمال البيت، أردتُ أخذ قسطٍ من الراحة، ففتحتُ حسابي الشخصي على فيسبوك وبدأتُ بمتابعة الأخبار والفعاليات التي تقوم بها وحدات الإرباك الليلي، فقرأتُ بأن هناك انفجارا كبيرا أحدثه العدو لمهاجمة الثائرين هناك، وبأن هناك مصابين، فبدأ قلبي بالغليان وكنتُ مترددة في الاتصال بحمزة، فقد يكون مشغولا، فأعيق عمله، فحاولتُ أن أصبر نفسي وأشغل بالي بأمور البيت إلى أن يأتي، وبعد ساعات دق جرس الباب، فاستغربتُ من الطارق، فحمزة يملك مفتاح البيت، وليس من عادته أن يدق الجرس، فسألتُ من خلف الباب:

- من الطارق؟

فرد عليَّ حمزة بصوتٍ متعب:

- أنا يا نور، افتحي.

فخفق قلبي من سماع صوته الذي كان يبدو هزيلاً، وفتحتُ الباب على عجل، فرأيته ملطخاً بالدماء ويسنده شابان، فطلب مني

أحد الشابين وهو يلهث:

- افتحي لنا الطريق.

فتراجعتُ عن الباب؛ لأفتح لهما الطريق، وأنا أصرخ على حمزة بأن يتكلم فقلتُ:

- ماذا جرى لك يا حمزة؟

فردَّ عليَّ وكان التعب يبدو عليه واضحاً:

- لا تقلقي يا نور إصابة طفيفة.

فنزلتُ إلى الأرض وقلتُ له:

- أرني الجرح.

فقال أحد الشابين:

- طلبتُ منه الذهاب إلى المستشفى، لكنه رفض وقال:

- زوجتي ممرضة وسوف تقوم بالواجب.

فتذكرتُ مهمتي بعد أن نسيتُ بأنني ممرضة عندما شاهدته بهذا المنظر، والدم يغطي جسده، وأسرعتُ وأحضرتُ الشاش والمطهر، وبدأتُ بتضميد الجرح، لكنه بدأ بالصراخ عندما وضعتُ المطهر على الجرح، حتى كاد يمزق قلبي، فقلتُ له:

- أرجوكَ تحمل قليلاً؛ لأتمكن من تطهير الجرح.

وأنهيتُ عملي وربطتُ الجرح، فبدأ يشعر بالراحة، فرد أحد الشباب:

- إنك ممرضة ماهرة، لديه الحق بأن يرفض الذهاب إلى المستشفى.

فشكرته على هذه الشهادة، وشكرتُهما على إيصال حمزة ووقوفهما إلى جانبه، فقال أحدهما:

- نحن أبناء وطن واحد، وحمزة عرض نفسه للخطر من أجل إنقاذ حياة شاب كان قريباً من السياج، ولو لم يذهب حمزة لإنقاذه لفارق الحياة، فقد حدث انفجار ضخم هناك، أدى إلى إصابة عدد كبير من الشبان.

غادر الشابان وتركاني مع حمزة أخيراً، فبدأتُ بالبكاء وقلتُ له:

- ألم أقل لك بأن تأخذ حذرك يا حمزة؟

- لا تبكِ يا نور أرجوكِ، فهذا قدري وهذه مهمتي.

فقلتُ له بقلق:

- والدتكَ سوف يجن جنونها عندما تعلم، وهي غير قادرة على تحمل خبر مثل هذا.

ابتسم حمزة وقال:

- ما أعظمكِ يا نور! ألهذه الدرجة تخافين على أمي؟

- هي ليست أمك لوحدكَ يا حمزة، ولهذا لن أخبرها بالحقيقة.

استغرب حمزة وقال:

- ماذا تقصدين؟

- لن أخبرها بأنك أصبت، وسأقول لها بأنك وقعت وتعرضت لتمزق بسيط في قدمك؛ لأنها إذا علمت بأنك أُصبت فسوف تقسم عليك بأن لا تذهب إلى الحدود، وأنا طبعاً أعرف عقل زوجي وإصراره العنيد.

فضحك بشدة حتى تألم من كثرة الضحك وقال:

- أنا حقاً سعيد الحظ بأنكِ زوجتي يا نور.

فقلتُ له:

- الله يكون في عوني على دلعك لمدة شهر.

- ماذا تقولين! شهر كثير يا نور لا أستطيع!

- لكي يلتئم جرحك يا عزيزي لا بد أن تسمع كلام طبيبتك.

بعدها ساد صمتٌ طويل بيننا، فكلانا متعبٌ ومرهقٌ، فنمنا في صالون المعيشة دون أن نشعر، ولم أستيقظ إلا على صوت الطفلين مصدومين من منظر حمزة وساقه المضمدة فقلتُ لهما:

- لا تخافا، إنه مجرد كسر بسيط، هيا قبّلا والديكما واتركاه ليستريح، وتعاليا لنتناول الفطور. قبّله يامن ويزن أما أخي الصغير عبود، فقال له ببراءة:

- ألف سلامة عليك يا بابا.

حقاً أنا سعيدة.. فمنذ زواجي من حمزة لم أعد أشعر بالخوف

على إخوتي الصغار، فلم يشعرهم حمزة بفقدان الأب، حتى أنني نسيتُ بأنني أختهم الكبيرة، فجميعهم ينادونني بماما نور، حتى دينا التي قاربت أن تصبح صبية تناديني مثلهم، حقاً ما أجملها من كلمة تروي القلوب المتعطشة لعيش لحظات الأمومة الجميلة!

ولكن رغم كل السعادة التي غمرتنا في هذا البيت، إلا أن هناك هاجساً من الخوف كان يراودني في كل لحظة، وهو أن أفقد حمزة في يومٍ ما، ويأتي لي شهيداً من مسيرات العودة التي من المستحيل أن يتوقف عن الذهاب إليها، من أجل العمل فداء للشباب الثائر هناك، والأدهى والأصعب أن هذا الشعور لا يمكنني أن أبوح به لأحد، حتى بتُ أختنق من مجرد التفكير به.

سمعت والدة حمزة الأطفال يتحدثون عن الكسر الذي أصاب ساق حمزة، فاشتعل قلبها قلقاً وخوفاً وأخذت تنادي عليَّ:

- يا نور، تعالي بسرعة.

هرولتُ إليها فقد ظننتُ أنها متعبة:

- ما بكِ يا خالتي؟

فردت عليَّ ويداها ترتجفان:

- أين حمزة يا نور؟

ففركتُ يديَّ ببعضهما وقلتُ:

- إنه نائمٌ في الصالة.

- يعني صحيح أنه مكسور مثلما سمعتُ من الأولاد؟

فطمأنتها قائلةً:

- لا تخافي، الكسر بسيط.

فردت عليَّ بصوتٍ مرتعش:

- يا ابنتي لا تستطيعين أن تكذبي؛ لأنكِ لا تعرفين الكذب، حمزة ليس مكسوراً، قلبي هكذا يخبرني، أخرجيني إليه.

- ولكنكِ متعبة يا خالة.

- حمزة متعبٌ أكثر مني، أنا متأكدة.

أسندتها على كتفي، ومشيتُ معها خطوات ثقيلة وبطيئة إلى الصالة، وكان حمزة يجلس مع أمي ويتسامران، فاستغرب خروج أمه من غرفتها، وقال:

- أمي، لماذا قمتِ من سريرك؟

فردت أمه بعصبية بعد أن أجلستها قربه:

- قمتُ لأن زوجتك لا تعرف أن تكذب، لماذا لا تريدان إخباري وتخبئان عني؟، أهذا كسر؟، أنت مصابٌ يا ولدي، ولا تريد من أمك أن تخفف عنك وتدعو لك.

فرد حمزة بهدوء:

- لا أريد أن أقلقكِ عليَّ يا أمي.

فلم تصغ أم حمزة لكلامه ووجهت لي الكلام:

- وكيف جرحه يا نور؟، وإياكِ والكذب؛ لأنني أفهمكِ.

فقلتُ:

- سأخبركِ بصراحة، الجرح ليس عميقاً، ولكنه في نفس الوقت ليس بسيطاً، ويحتاج إلى راحة تامة، ولكن...

- ولكن ماذا؟ أكملي.

فنظر إليَّ حمزة نظرة غضب، لكني أكملتُ حديثي:

- ابنكِ مصرٌّ على النزول إلى العمل بعد أسبوع، والجرح يحتاج إلى شهر؛ كي يلتئم بشكل تام.

فرد حمزة بعصبية شديدة، لم يفعلها من قبل:

- ولكن شهر كثير، لا أستطيع.. هو أسبوع وسأخرج ولا تقلقوا، سأضع ثقلي على ساقي الأخرى.

فردت أم حمزة وكانت فخورة بابنها:

- طول عمره حمزة عنيد، حتى في قصة زواجه الثاني، لم يكن مقتنعاً بالزواج نهائياً، ولكن لا أدري ماذا جرى له عندما رآكِ؟

فرد حمزة بسعادة:

- وتطلبون مني عدم الذهاب إلى الحدود، وهناك وجدتُ

مفتاح قلبي؟

وغمز لي حتى احمرت وجنتاي خجلاً، وقلتُ له وقد نسيتُ إصراره العنيد على الخروج بعد أسبوع دون أن يلتئم جرحه:

- لكي تعرف من وجد مفتاح قلبك، وتمكن من الدخول إليه.

كنتُ يومياً أغير له على جرحه، حتى بدأ يشعر بالتحسن، وبدأ يخطو عليها بإسناده على كتفي، ورغم شعوره بالألم، إلا أنه كان مُصراً على الخروج إلى الميدان والذهاب إلى عمله، بحجة أن مهمته إنسانية ولا يستطيع التأخر أكثر من ذلك، ولكني كنتُ قلقةً عليه، فجرحه يحتاج إلى الراحة؛ لكي يبرأ تماماً، فكنتُ دائماً أقول له:

- اصبر يا حمزة أسبوعاً آخر؛ لأطمئن عليك.

فكان يرد عليَّ بكبرياء:

- لا تقلقي، فإصابتي بسيطة بالنسبة لما أراه هناك.

فكنتُ أرد عليه بخوف:

- أعلم ذلك، ولكن إصابتك قريبة من الركبة، والضغط عليها سيقلل سرعة شفائها، وأنت لا تملك أداة مساعدة لتساعدك على المشي؛ لأنك لم تسجل كمصاب، بسبب رفضك الذهاب إلى المستشفى.

وعندها غضب غضباً شديداً، وحاول القيام بسرعة على ساقه، حتى خرَّ مستسلماً وهبط على الأرض من شدة الألم وقال لي:

- ماذا بكِ يا نور؟، أنا لا أعرفكِ هكذا، أنا لم أصب ليقال عني مصاب أو أحصل على أداة مساعدة، الكثير من المصابين بحاجة إليها أكثر مني، ولا تقلقي عليَّ كما قلتُ لك، لن أعتمد على ساقي المصابة كثيراً، سأضع حملي على ساقي الأخرى.

ثم قام مستنداً إلى الجدار بعد أن رفض أن أساعده وقال:

- سأخرج إلى العمل، إن احتجتم إلى شيء تواصلي معي على الهاتف، إلى اللقاء.

صُعقتُ من منظره، فحمزة معتادٌ ألا يخرج من البيت دون أن يضمني إلى صدره ويُقبل جبيني، ماذا جرى له؟، وبدأت بالبكاء، حتى سمعتْ والدته بكائي رغم انخفاض صوتي، فأخذت تناديني:

- يا نور ما بكِ؟، تعالي إليَّ يا ابنتي.

كفكفتُ دموعي لأذهب إليها وأجاملها رغم حزني، إلا أنها هي من جاملتني عندما بدأت بالحديث:

- يا نور يا ابنتي، لا تغضبي من حمزة، فهو يحبكِ أكثر من نفسه.

فقاطعتها وقلتُ لها:

- لا أعرف ماذا جرى له؟، أصبح عصبياً جداً منذ مكوثه في البيت.

فردت عليَّ بحكمةٍ:

- يا نور، الرجل لا يحب أن يشعر بالضعف أمام زوجته؛ لأنه

هو سندها وقوتها، وإن شعرت بضعفه وحاجته للمساعدة، لن تشعر بالأمان معه، لذلك لا تعامليه على أنه مريضكِ، فهمت يا ابنتي؟

فاقتربتُ منها وضممتها وقلتُ لها:

- شكراً يا خالتي على تعاليمكِ، فحقاً أنا بالغتُ بخوفي عليه، حتى ضجر مني.

فربتت على كتفي وقالت:

- لا تقلقي بعد لحظات هو من سيهاتفكِ.

فهدأتُ من كلامها الجميل الذي نزل كالبلسم على قلبي، وحقاً كان كلامها في محله، فبعد لحظات دق هاتفي وكان هو:

- ألو حمزة كيف أنتَ؟

وكزتني خالتي فقلتُ:

- كيف الوضع عندكم؟، فالكهرباء مقطوعة عندنا.

فقال:

- توجد بعض الإصابات الطفيفة، لكن لا يوجد شهداء بحمد الله، لذا سأعود للبيت بعد ساعة من الآن، فالوضع هادئ.

فقلتُ له:

- على خير إن شاء الله.

مرت ساعتان منذ مكالمته تلك، ولم يأتِ، فبدأتُ بالقلق وزاد

توتري، حتى أن خالتي وأمي بدأ القلق يظهر عليهما، ورغم صبر والدته الشديد إلا أنها كانت تتمتم وتقول:

- يا رب أرجع لي ابني سالماً!

وعندما لاحظتُ توترها قلتُ لها:

- سأضع لكِ الطعام، فقد تأخرتِ عن موعد الدواء.

إلا أنها رفضت وقالت:

- لا، عندما يعود حمزة نأكل معاً.

زاد قلقي عندما لاحظتُ قلقهما وخوفهما على حمزة، حاولتُ الاتصال به مراراً، إلا أن هاتفه كان خارج التغطية، فجلس كلٌّ منا في ركنٍ وساد الصمت بين الجميع، حتى أن الأطفال توقفوا عن اللعب أو إحداث أي ضجة، وجاء يزن وسألني:

- ماما نور، أين أبي؟، ألم تخبرينا أنه في الطريق إلينا؟

فمسحتُ على رأسه وقلتُ له:

- لا تقلق، إنه على وصول.

وبالفعل، بعد لحظات سمعنا خشخشة المفاتيح من خلف الباب، فقفز الجميع نحو الباب، وعندما فتح حمزة الباب تفاجأ من وجودنا واقفين هكذا، ولاحظ لون وجوهنا التي بدت شاحبة، وفجأة عادت إليها الحياة من جديد، فقفز الصغار نحوه حتى كاد يقع أرضاً، وكان

يبدو عليه الإرهاق الشديد، فقال موجهاً الكلام لي:

- ما بكم كالمستنفرين؟

فجمعتُ أفكاري وحاولتُ أن آتي بجوابٍ مقنعٍ فقلتُ:

- لا شيء، الأطفال شعروا بطول غيابك اليوم، فاستنفروا عندما سمعوا حسيسك.

إلا أن كلامي لم يدخل إلى عقله، خصوصاً عندما سمعت والدته صوته، فأصبحت تنادي عليه كالمتلهفة:

- حمزة أرجعت يا ولدي، الحمد لله تعال لأراكَ.

اتجه حمزة مسرعاً إلى حيث كانت تجلس والدته، وقبّل يديها وقال:

- ما بكِ يا حجة؟، ليس من عادتكِ أن تقلقي هكذا.

فردت عليه والدته برجفة وقالت:

- لا أدري يا ولدي، كانت هناك غصةٌ في قلبي، لكنها ذهبت بمجرد عودتك إلينا سالماً.

فنظر حمزة نحوي وقال مستاءً:

- يبدو بأن القلق انتشر في جميع أرجاء البيت.

ثم واصل حديثه:

- سأخبركم عن سبب تأخري في الميدان، ولكن في البداية أريد أن أتناول الطعام، فإني أتضور جوعاً.

فهرولتُ مسرعةً باتجاه المطبخ لأحضر الطعام، وجلسنا جميعاً نلتفُ حول المائدة الصغيرة، التي نشعر حولها بالأمان طالما لا يوجد شخصٌ غائبٌ عنها، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، ذهب الأطفال للنوم، وجلستُ برفقة حمزة وأمي في غرفة والدته، ليبدأ حديثه عما جرى معهم اليوم:

- بالطبع يا نور، عندما أخبرتكِ بأنني سأعود حالاً كنا نقوم بترتيب أغراضنا وإزالة الخيام، من أجل أن يعود كلٌّ منا إلى بيته بعد أن شعرنا بأن اليوم هادئ، ولا يوجد الكثير من الشبان هناك، إلا أننا لاحظنا اقتراب أحد الشبان من السياج، فأخذ الجميع ينادي عليه بأن يتوقف عن التقدم، لكنه لم يستجب لأحد رغم أن أصواتنا كانت عالية، وكان يحمل في يده علم فلسطين، واقترب أكثر حتى وصل السياج ووضع العلم فوقه، وهنا يبدو بأن العدو لم يعجبه هذا الشيء، فبدأ يطلق الرصاص تجاهه، وعلى كل من يحاول الاقتراب لإنقاذ حياته، حاولنا جاهدين كمسعفين أن نتجه إليه ونحن نحمل الراية البيضاء، إلا أن العدو رفض أن نصل إليه وتركه ينزف مدة طويلة، وعادت الأمور؛ لتشتعل من جديد، بعد أن بدأ الشبان بإشعال الكوشوك ويلقون الحجارة غضباً على ما فعله العدو بهذا الشاب، فقاطعتُه وسألته:

- وماذا حلَّ بذلك الشاب؟

- على ما يبدو أنه بقي ينزف حتى فارق الحياة، حتى أننا لم نستطع أخذ جثمانه.

- ولماذا لم تأخذوا جثمانه؟

- لأن العدو حجز جثته.

- وماذا سيستفيد العدو من جثة ميت؟

- يا نور، العدو لا يقدس الجثث، بعكس ديننا الإسلامي الذي يوجب دفن الميت كرامة له، وهم بهذه الطريقة يستفزون أمهات الشهداء.

فقالت والدة حمزة بحزن:

- كان الله في عون والدته، لم تتمكن من إلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه!

فرد عليها حمزة بأسى:

- الكثير من الأمهات الفلسطينيات يحرمن من توديع فلذات أكبادهن، والكثير منهن تصل إليهن جثث أبنائهن دون معالم، متفحمة متكورة داخل الكفن الأبيض.

فقالت أم حمزة بلوعة:

- يا إلهي ربي يصبرهن!

فردت عليها أمي:

- هذه حالنا يا أم حمزة.

حك حمزة ذقنه، وكأنه يريد أن يتكلم عن شيءٍ ما، ولكنه خائف أو متردد، فوكزته بيدي وقلتُ له:

- ما بكَ يا حمزة صامتٌ هكذا؟

فقال بعد أن عزم على إخراج ما يدور في رأسه وسألنا:

- لو تلقيتم خبر استشهادي يوماً ما، ماذا ستفعلون؟

فأخذنا ننظر إلى بعضنا البعض، ولم أستطع الكلام، وكأنني أصبتُ بالصمم، أما أمه، فأخذت تندب وتقول:

- ماذا تقول يا ولدي؟، أتريد أن تحرق قلبي بكلامك هذا؟، صحيح أن القدر ليس منه هروب، لكن إياكَ أن تقول مثل هذا الكلام مرةً أخرى، لقد عكرت صفوي أكثر مما هو معكر، هيا اذهب من هنا أريد أن أنام.

فهب حمزة يقبل جبين أمه، ويُهدئ من روعها بعد هذا الكلام، وذهب الجميع للنوم، دخلتُ برفقته إلى غرفتنا؛ لكي ننام، فلم ينم أحدٌ منا منذ ليلة أمس.

وما إن وضع رأسه على الوسادة حتى ذهب في النوم، أما أنا، فكنتُ أفكر في كلامه الذي قاله لنا قبل قليل، كنتُ قلقلة من أن أخسره في يومٍ من الأيام، حاولتُ طرد الأفكار السيئة من تفكيري،

قلبتُ جسدي على السرير، عسى أن أنام، لكن دون فائدة، فقمتُ وتوضأتُ وجلستُ لأقرأ ورداً من القرآن لعلي أهدأ، بدأتُ بالقراءة بكل هدوء، ولكن بعد لحظات، سمعتُ أنينه، فقفزتُ إليه، فكانت حرارته مرتفعة جداً، لكنه لا يزال نائماً، كان يتكلم وهو نائم ويئن من وجع ساقه، خفتُ عليه كثيراً، خصوصاً أن حرارته كانت مرتفعة، ولا أريد إيقاظه، فهو متعبٌ جداً، فأحضرتُ الماء البارد وجلستُ قربه لأضع له الكمادات، كنتُ مرهقةً جداً، ولكن لا يهم، وبعد ساعات، شعر بوجودي إلى جانبه، ففتح عينيه وقال لي:

- نور ما بك؟، لماذا أنتِ مستيقظة؟

فتحسستُ ساقه وقلتُ له:

- هل تؤلمك ساقكَ يا حمزة؟

فقال متردداً:

- قليلاً.

فناولته كأس ماء وقلتُ له:

- يا حمزة أنت قويٌ في نظري، حتى وإن كنت تتألم، فلا تخفي عليَّ ألمك؛ لأنني أشعر بكَ.

فقال لي:

- لا تقلقي عليَّ، فالأحداث اليوم كانت مفاجئة، ومكثتُ

طويلاً أقف على ساقي، ولكن عندما عدتُ إلى البيت ورأيتكم بخيرٍ، نسيتُ كل آلامي.

فقلتُ له:

- انتظر قليلاً.

وذهبتُ إلى الدولاب الذي أضع فيه الأدوية، وتناولتُ شريط المسكن وقلتُ له:

- تناول حبة من هذا المسكن؛ لكي تستطيع النوم بهدوء ويزول الألم.

تناول الدواء، ثم نظر إليَّ محدقاً، حتى شعرتُ بأنه قد غاص في عينيّ، وأشار إليَّ قائلاً:

- وأنتِ، هيا إلى النوم، يكفيكِ سهر وإرهاق، فهذه العيون الجميلة لم تُخلق للتعب والسهر.

أشرقت شمس يوم الجمعة علينا وقد تأخرنا في النوم على غير عادتنا، فاستيقظ حمزة كالمجنون وقال لي:

- لقد أوشك الظهر أن يؤذن، ولا بد أن أذهب للصلاة وألتحق بالمسيرات، فاليوم الجمعة، ولا بد أن نكون على أتم الاستعداد لإسعاف الشباب الثائر هناك.

فقلتُ له بقلقٍ وخوف:

- لا تزال مُصراً على الذهاب، رغم وجعكِ وألم ساقكَ؟

فقال لي:

- وجع الشعب أمر من وجع ساقي، وجعي لا يساوي شيئاً أمام وجع الملايين هناك قرب الحدود.

وقبل أن يعزم على الخروج، ذهب لأمه وقبّل يديها وقال لها بنبرةٍ لم أره يتحدث بها من قبل:

- أرجو أن تكوني راضية عني يا أمي، ودعيك من كلام الليل الذي عكر مزاجكِ.

واطمئن على أمي وقال لها:

- لن أتأخر، فلا تدعي نور تنشر القلق بينكم.

فضحكت أمي وقالت له:

- سهل الله دربك يا حمزة يا بني.

كان يحاول استفزازي، لكنه مهما يفعل بي فإني أحبه وأخاف عليه من نسمات الهواء، فما بالكم إن كانت تلك النسمات تحملها بعض الشظايا والرصاصات التي أخشى أن تصيبه؟

ثم تفقد الصغار، ومسح على رؤوس أخوتي وضمني إليه بقوة، حتى شعرتُ بأن روحي امتزجت بروحه، ولأول مرة أشعر بأن أناملي ترتجف، وظل يحدق بي طويلاً عند الباب، إلى أن ركب سيارة

الإسعاف وسار بها بعيداً وغاب عن نظري.

كان يومي غير طبيعي، حتى أنه لم يكن لدي الرغبة في طهي الطعام لأهل البيت، ولا أعرف السبب، فسارعت أمي لطهي الطعام، فقلت لها:

- ماذا تصنعين؟

فأجابت:

- ما بكِ يا نور اليوم؟، الأطفال بدأوا يشعرون بالجوع.

فقلتُ لها:

- لا أعلم ربما؛ لأن حمزة ذهب مسرعاً دون أن يتناول معنا الغذاء، كأي جمعة سابقة.

- لا عليكِ يا نور، اذهبي واستريحي.. اليوم أنا سأجهز لكم الطعام، أشعر بأنني في غاية النشاط، فقلت لها:

- شكراً يا أمي، سأنادي دينا لتقف معك.

تذكرتُ خلود، فغيابها قد طال، فحاولتُ الاتصال بها لعلها تأتي وتغير تعكر صفوي، وتتناول معنا الغذاء اليوم، فمنذ فترة طويلة لم أرها، لكن هاتفها كان خارج التغطية فقلتُ في نفسي:

- لا تزال تذهب هذه المجنونة إلى الحدود

حلَّ المساء ولم يعد حمزة بعد، فبدأ هاجس الخوف والقلق يشتعل

في قلبي، حاولتُ الاتصال به، كان هاتفه يرن، لكنه لا يجيب، فثار غضبي وقلتُ كالمجنونة:

- أقل ما فيها يا حمزة أن تطمئنني بكلمة «ألو» لا أريد غيرها.

نام الصغار بعد أن داهمهم النعاس، لطول انتظارهم عودة والدهم، وعدم وجود الكهرباء لتؤنس ضجرهم، وجلست أمي برفقة والدة حمزة تتسامران حتى يعود حمزة، دق جرس الباب، فهرولتُ مسرعةً لأفتح وأنا أقول:

- أخيراً عاد يبدو أنه متعبٌ من فتح الباب بمفاتيحه الخاصة.

وعندما فتحتُ الباب وجدتُ خلود تقف أمامي وعيونها تكاد تنفجر من تحجر الدمعات داخلها، فقلتُ لها:

- خلود ما بكِ؟

فضمتني إليها وأخذت تواسيني وتقول:

- ربنا يصبرك يا نور، أنا أشعر بكِ فقد مررتُ يوماً بما تمرين به الآن، وأخذت تبكي وأنا لا أفهم شيئاً، فقد كاد بكاؤها يشبه النحيب، فقلتُ لها بعصبية؛ لكي تهدأ:

- خلود توقفي عن البكاء؛ لأفهم ما بكِ.

فقالت ويا ليتني لم أسمع:

- لقد استشهد حمزة.

أصبحتُ كالصنم لا أستوعب ما تقوله، ولم أبكِ وقتها وكأن روحي لم تعد في جسدي، حتى أُغمي عليَّ، ولم أسمع سوى صرخات خلود وأمي وآهات أم حمزة، وبعد أن حاولت خلود أن تعيدني إلى وعيي، بدأتُ أتمتم:

- حمزة، حمزة لم يمت.

حاولتُ أن ألملم أشتاتي، حتى عدتُ إلى وعيي وهرعتُ برفقة خلود إلى مستشفى الشفاء؛ لأبحث عن حياتي هناك، وتركتُ الجميع ورائي يبكون ويصرخون، وصلنا إلى المستشفى، وبدأتُ بتفتيش ثلاجات الموتى للبحث عن حمزة، وأنا أصرخ بمن يقف في طريقي وأقول:

- حمزة لا يزال حياً، أنا أتنفس إذاً هو لم يمت.

بحثتُ في وجوه الشهداء، التي لُطخت بالدماء حتى اختفت ملامحها، وأصبحت جميع جثتهم متشابهة، أخيراً وجدته، فصرختُ بأعلى صوتٍ:

- ألم أقل لكم إنه حي.

لم يصدقني أحد، وظن من حولي بأنني لا أعي ما أقوله، فاقتربتُ من جسده وضغطتُ بأصابعي على جِيده، فزاد أملي، وكان قولي صحيح، نعم، لا يزال جسده ينبض، شعر من حولي بهول ما

رأوا، وبدأ الإعلام يقول بأن هناك شهيدا عاد إلى الحياة.

حتى أن خلود توقفت عن البكاء، فقد كانت تبكي خلفي حبيبها الذي استشهد قبل أشهر عديدة، وكانت في نفس الموقف ذاته، توقفت عن الندب من هول الخبر.

تم الإسراع لإنعاش حمزة بمساعدة الأطباء الذين كانوا يعرفونني، فعاد القلب ينبض من جديد، وعدتُ أتنفس بشكل طبيعي، وكأن الحياة عادت لي أنا من جديد.

ورغم وضع حمزة الصعب وغير المستقر، إلا أنني شعرتُ بأنه متمسكٌ بالحياة، وكأنه شعر بوجودي إلى جانبه.

جلستُ قرب سريره، بعد أن حاولتُ إقناع خلود بالعودة إلى البيت؛ لتطمئن على الصغار، وتُطمئن والدتي ووالدة حمزة بأن ابنها لا يزال يتنفس هواء الوطن.

ذهبت خلود أخيراً، وأصبحتُ وحدي، شعرتُ ببعض الراحة، وكأن جبلاً أزيل من فوق جسدي، وأخذتُ أتأمله، كم هو بطلٌ في نظري، هذا هو حمزة الذي عندما يُصرُ على شيء لا بد أن يفعله، ها هو اليوم يصر على استمرار الحياة، وبفضله مُنحتُ أنا الحياة أيضاً من جديد.

رن هاتفي حتى أخرجني صوته العالي من تأملاتي، فقلتُ في نفسي:

- إنها خلود يا ساتر.

رددتُ عليها وسألتها:

- معكِ خلود، أخبريني كيف حال الأولاد وأم حمزة؟، هل اطمئنوا على حمزة؟

- نعم، ولكنها متعبة جداً، ولا أدري ما أفعله.

فأخبرتها:

- مسافة الطريق وسأصلكما.

كنتُ مضطرة لترك حمزة، رغم أن لا أحد يدري بأن غيابي عن حمزة يشل تفكيري وحياتي كلها، وصلتُ إلى البيت، فهرول الصغار نحوي، وكانت وجوههم شاحبة من شدة خوفهم على جدتهم، فحاولتُ أن أضمهم إلى صدري؛ لأشعرهم بالأمان رغم أن جسدي منتفضٌ مما رأيتُ وشاهدتُه اليوم، فقال لي يامن وهو يبكي:

- هل سيموت أبي، ولا يعود لي أب ولا أم؟

فشددته إليَّ وقلتُ له:

- لا تقل هذا الكلام، فوالدك لا زال يتنفس، إنه حي يا يامن، هل تفهم؟ إنه على قيد الحياة.

- حقاً، وكيف يقول الجميع بأنه استشهد؟

- لا تصدق أحداً غيري، إنه حي لقد أنقذناه.

فبكى يامن بين أحضاني وقال:

- أرجوكِ أريد الذهاب إليه، أريد أن أراه.

- أعدكَ بأن نذهب إليه جميعاً، ولكن ليس الآن، فهو لا يزال متعب ونائم، وأطلب منك أن لا تتوقف عن الدعاء له.

ثم هدأتُ من روع أم حمزة، وأخبرتها بأن حمزة لم يمت، فسألتني بقلب الأم الملهوف:

- صحيح يا نور؟

فقلتُ لها:

- نعم صدقيني، ولكن هو بحاجة إلى دعواتكِ.

فلم يسكت لسانها عن الدعاء منذ ذلك الوقت، ثم أخبرتُهم بأنني لا بد أن أعود للمبيت قرب حمزة، وقلت لخلود:

- أرجوكِ، ابقي قرب الأطفال.

لم أكن أعلم ماذا سأفعل دون وجود خلود في حياتي؟ وصلتُ إلى حمزة وكان وضعه لا يزال حرجاً، فلم يفتح عينيه منذ لحظة الإصابة، كم اشتقتُ لعينيك يا حمزة!

كانت تلك الرصاصة اللعينة التي دخلت إلى صدره وغيرت مسار حياتنا، وحولتها إلى جحيم، هي سبب ما نحن فيه الآن، حيث عجز الأطباء عن إزالتها كونها قريبة جداً من القلب، وقد تودي

بحياته إلى الأبد، كنتُ أرفض مجرد التفكير في أنه من الممكن أن يفارقني ويتركني وحيدة في هذه الحياة، أعيش ألم الفراق والوحدة والمسؤولية التي تنتظرني، كاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير في القادم والخوف منه.

استمر مكوثي قرب حمزة، كنتُ أتأمله كثيراً، فتهيأ لي أنه يتحرك، بل هو فعلاً يتحرك، وبات يئن بشدة، فهرولتُ إلى الخارج أستنجد بالطبيب، وبعد عناء في البحث عنه وجدته أخيراً، فحضر معي إلى الغرفة التي لم تكن تخص حمزة وحده، فيوجد هناك مريضان غيره في الغرفة من كثرة عدد الجرحى، وعدم وجود إمكانات كافية ولا حتى غرف إضافية لاستيعاب جميع الجرحى الذين أصيبوا في مسيرات العودة، ولولا أن حالة حمزة حرجة لما بقي في المستشفى كل هذا الوقت.

حاول الطبيب أن يتفحص حمزة، فقد كان يئن بشدة، وكاد قلبي يتمزق من شدة أنينه، ولم أكن وقتها قادرة على وصف مشاعري، أأفرح كونه استيقظ وأشعر بوجوده رغم أنه لم يعِ بعد ما يدور حوله، أم أبكي على وجعه الذي لم أتحمل سماعه؟!

طلب الطبيب نقله إلى قسم الأشعة لإجراء صورة أشعة له بعد أن قال:

- يبدو أن الرصاصة تحركت من مكانها، وهذا مؤشر خطير.

صُعقتُ من الخبر، وكاد يُغمى عليَّ، أريد أن أصرخ، أن أقول لا، لكن لا أحد بجانبي ليواسيني، وبالفعل بعد الانتهاء من إجراء صورة الأشعة، تبين أن الرصاصة تحركت قليلاً من مكانها، فقد أصبحت قريبة جداً من القلب، وهنا جُن جنوني لا أريد للفقد أن ينتصر عليَّ مرةً أخرى، فبدأتُ بالسعي من أجل الحصول على تحويلة علاج له في الخارج، أما هو، فقد عاد إلى سكونه من جديد، بعد أن أعطاه الطبيب حقنة لينام ولا يشعر بالوجع، ولعله لا يريد أن أراه ضعيفاً، ففضل الهروب بهذه الطريقة.

هكذا هو حمزة كما عرفته لا يحب أن يشاهده أحدٌ ضعيفاً، حتى وإن كان على فراش الموت، عدتُ إلى البيت، أنتظر التحويلة وأنتظر أن يستيقظ حمزة.

وصلتُ إلى البيت، ودخلتُ لأطمئن على يزن ويامن، فقد كانا حزينين على والدهما، فوجدتهما قد ناما بين أحضان دينا وبرفقتهم عبود الصغير، فتأملتهم جميعاً وابتسمتُ وقلتُ في نفسي:

- ما أجملكم جميعاً، اللهم أعني على هذه المسؤولية!

ثم ذهبتُ لأطمئن على أم حمزة، وقد كانت خلود تجلس قربها برفقة أمي فقلتُ لها:

- عودي إلى البيت، فقد تعبتِ كثيراً معنا.

فردت خلود:

- لا تقولي هذا الكلام، أنتِ أكثر من أخت بالنسبة لي.

غادرت خلود وجلستُ قليلاً مع أم حمزة، وطمأنتها على ابنها، فقالت لي:

- اذهبي واستريحي يا ابنتي، فقد تعبتِ كثيراً اليوم.

- وأنتما لا تريدان النوم؟

فقالت أمي:

- سأنام الليلة قرب أم حمزة، وها هي دينا نامت قرب الصغار.

دخلتُ إلى غرفتي التي كانت تخلو من صوت حمزة.. لأول مرة يكون بعيداً عني، ولا أدري إن كان سيعود أم سيتركني؛ لأتحمل مسؤولية الحياة لوحدي إن رحل. رميتُ بجسدي المنهك فوق السرير، ولم أعرف كيف نمتُ ولم أستيقظ إلا على صوت دينا توقظني لتناول الفطور معهم، بعد أن أخبرتني قائلة:

- يزن ويامن لا يريدان تناول الفطور إلا معكِ.

استيقظتُ والدموع تملأ جفوني، حتى لاحظت دينا انتفاخ عينيَّ فقالت:

- ما بكِ يا أختي؟، وكأنكِ كنتِ تبكين طوال الليل.

فأخبرتها وأنا أحاول رسم البسمة المزيفة على وجهي:

- كم أنتِ حنونة يا دينا، لا تقلقي، هو فقط الإرهاق وقلة النوم ما فعلا بي هذا، هيا نتناول الفطور؛ لأنني مضطرة لأن أترككم وحدكم اليوم أيضاً.

فسألت دينا:

- لماذا؟، هل حصل جديد بخصوص حمزة.

- لا يا دينا، وضعه سيء لا أخفي عليكِ، لذا أريد الذهاب لمتابعة أمور تحويله للعلاج في الخارج.

تناولنا الفطور سوياً، وعيوني متعلقة على هذين الطفلين، حتى كادت دموعي تنزلق وتفضحني، فكيف سأعوضهما عن حنان الأب إن حدث مكروه لحمزة؟

وذهبت أمي لتتناول الفطور مع أم حمزة، فقد كانت ترفض تناول أي شيء منذ البارحة.

ودعتُ الصغار بالقُبل والوعود بالإتيان بالهدايا، وعند الباب أمسكتُ بدينا وأوصيتها:

- دينا أنتِ أكبرهم، لن أتأخر اليوم عليكم، اهتمي بالصغار إلى أن أعود، ولا تجعلي أمي ترهق نفسها.

فقالت دينا:

- هل ستأتي خالة خلود اليوم أيضاً؟

فقلتُ لها:

- لا أعلم، فقد أتعبناها معنا كثيراً، لا بد أن نعتمد على أنفسنا من الآن فصاعداً، وإن جاءت من نفسها جاءت، وإن لم تأتِ فقد تكون مشغولة بشيء ما.

باتت حياتي ما بين البيت والمستشفى، كانت الأيام تمر ثقيلة عليَّ، ولا أعلم ما ينتظرني بعد، مر أسبوع على طلب التحويلة، فتوجهتُ إلى الجهات المسؤولة عن عمل التحويلات العلاجية من أجل حمزة، لأرى ماذا حدث.

بعد طول انتظار هناك، جاء الرد برفض الجهات الإسرائيلية تحويل حمزة للعلاج في (إسرائيل)، شعرتُ وقتها أنهم يحكمون عليه بالموت البطيء، فكل يوم يمر يزداد وضع حمزة سوءاً، لم أعد أعرف ماذا أفعل، ثم توجهتُ مسرعة إلى المستشفى لرؤية حمزة، وصلتُ إليه وكان مستيقظاً، لكنه لا يزال متعباً، تبسم لي، فأمسكتُ بيده ولا أعرف من سيستمد القوة من الآخر، فكلانا ضعيفٌ يحتاج إلى من يمده بالقوة، وأطلقتُ لدموعي العبرات لعلي أستريح قليلاً.

هز برأسه ولم يكن قادراً على الكلام بعد، وبعد أن نفذت عبراتي واستعدتُ وعيي، لاحظتُ تيبس يده التي أمسك بها، فسرى

الخوف في أنحاء جسدي، فبدأتُ أتحسس سائر جسده، فكان متيبساً كالحجر، فأيقنتُ أنه بحاجة إلى علاج طبيعي، فقلة حراكه كل تلك الفترة أدت إلى جعل جسده هكذا، فشرعتُ بتدليك أجزاء من جسده؛ لأحميه من مشاكل أخرى قد تؤثر عليه في الأيام القادمة، ولم أشعر كيف مر الوقت سريعاً، وكان لابد أن أعود إلى البيت من أجل الصغار، فطبعتُ قُبلةً على جبينه، وقلتُ له:

- سأعود إليك في الغد.

دخلتُ المنزل وكانت أمي تستعد للنوم بعد أن نام الصغار، لكنها توقفت عندما سمعت صوتي واتجهت نحوي لتطمئن:

- ماذا حدث بتحويلة العلاج؟

فبكيتُ وقتها لا أعرف لماذا؟، كأنني كنتُ أمسك نفسي وأعاندها؛ لكي لا تبكي أمامهم، ولكن يبدو بأن صبري بدأ بالنفاد وأخبرتها:

- تحويلة حمزة رفضتها السلطات الإسرائيلية.

فصرخت وقالت:

- لماذا؟، يدمرون حياتنا ومن ثم يرفضون علاجنا، ما كل هذه الوحشية التي يتمتع بها ذلك العدو؟! نحن لا نريد سوى أن نلملم حُطامنا من أجل أن نستند على بعضنا البعض لمتابعة تلك الحياة القاسية.

مسحتُ دموع أمي وقلتُ لها:

- لا عليكِ، سأحاول مجدداً من أجل التحويلة، وسألتها عن والدة حمزة، فقالت:

- بالكاد أقنعتها أن تنام قليلاً.

في اليوم التالي خرجتُ مبكراً، وكأنني كنتُ أنتظر النهار لأخرج، ودعتُ الأطفال ووصيتُ أمي أن تأخذ بالها من الأولاد وأم حمزة في غيابي، ووعدتها بأنني سأحاول الرجوع إليهم بسرعة، وقبل أن أهمَّ للخروج اطمأننتُ على أم حمزة وقلتُ لها:

- إن حمزة في تحسن، فقط، استمري بالدعاء له.

كان عليَّ أن أكذب وأقول لها هكذا، رغم أن وضع حمزة لا يزال غير مستقر، لكنها لن تتحمل المزيد من الصدمات، ويكفينا ما نحن فيه، فلا أريد أن يحدث لها مكروه، وفي طريقي تذكرتُ خلود وتساءلتُ في نفسي:

- أين هي؟، ولم هي غائبة عني كل هذه الفترة؟، ليس من عادتها أن تفعل ذلك.

حاولتُ الاتصال بها طول الطريق، ولكن هاتفها كان خارج التغطية، فأيقنتُ أنها مرابطة قرب الحدود كعادتها، تناسيتُ أمرها بعد أن انشغلتُ بموضوع تحويلة حمزة، وعمل الإجراءات اللازمة، ولكن للأسف تكرر ما حدث في المرة السابقة، الوعود الكاذبة التي

ليس بيدي إلا أن أصدقها، وأنتظر القرار على أمل الموافقة.

اتجهتُ مسرعةً إلى المستشفى، حيث يرقد حمزة، ففي الفترة الأخيرة بدأتُ أشعر بالحاجة الملحة لرؤيته، ورغبتي في الجلوس معه لفترات طويلة، وعندما وصلتُ إليه تفاجأتُ بأنه يخضع لعملية جراحية عاجلة إثر انسداد أحد الشرايين، والتي أدت إلى صعوبة تنفسه وتعرضه للاختناق.

انتظرتُ خروجه طويلاً، وخلال لحظة انتظاري شاهدتُ وصول عدد كبير من الشهداء إلى المستشفى، وتداعت الأقاويل أن من بين الشهداء نساء وأطفال، لكني لم أعر الأمر اهتماما، فبالي مشغولٌ بحمزة الذي طال مكوثه في غرفة العمليات، ومع لحظة خروجه من غرفة العمليات بدأ هاتفي يرن بعنف، فتركته يرن؛ لأنني لا أعرف من المتصل، فقد كان الرقم غريباً لم أره من قبل، ولكن مع استمرار رنين الهاتف، وإصرار المتصل على معاودة الاتصال، تسلل الخوف إلى قلبي، فاضطررتُ لأن أرد وأرى من المتصل.

- ألو عفوا من المتصل؟

فجاءني الصراخ والنحيب من جهة المتصل، ولم أفهم شيئاً مما يقوله، فرجوت المتكلم:

- تكلم بهدوء لأتمكن من فهمك، من معي؟

فجاء الصوت:

- أنا والدة خلود.

فسرى الخوف إلى أنحاء جسدي وقلتُ لها:

- ماذا هناك يا خالة؟

فقالت بصوت باكٍ:

- أين أنتِ يا نور؟

- في المستشفى يا خالة، ماذا هناك؟

فقالت:

- خلود استشهدت يا نور.

صدمتُ من الخبر وصرخت:

- ماذا تقولين؟

وأقفلتُ الهاتف، وهرولتُ مسرعةً بين الممرات، حتى وصلتُ إلى قسم الطوارئ، كانت الجثث لا تزال هناك، ومن بين الجثث واحدةً مكتوبٌ عليها مجهول، فاقتربتُ منها ويداي ترتجفان، وكشفتُ عن وجه الجثة، فرأيتُ ملاكاً نائماً، إنها خلود الصديقة والأخت، وكل شيء بالنسبة لي، اليوم توفي بوعدها لحسام وتلحق به، وتتركني وحيدة أتلوع الفقد لوحدي، بكيتُ وقتها وكأنني لم أبكِ منذ زمن، وضممتُ جسدها إليَّ حتى امتزجت دماؤها بثيابي،

ولم أقم من فوق جسدها إلا على صوت أمها التي أتت باكيةً تنادي على ابنتها التي لم تعد تسمعها، فقد صعدت روحها إلى السماء وفازت بما تمنته.

هدأتُ من صراخ أمها الذي أبكى كل من حولنا، وأخبرتُها:

- خلود اليوم عروس، لحقت بحسام لتزف إليه في السماء، وقبل أن يأخذوا خلود من بين أحضانها من أجل تكفينها، خضبت يديها بدماء ابنتها ولوحت بيديها وقالت:

- اليوم حنة ابنتي.

ثم بعد ساعات صارت جنازة خلود بسرعة البرق فقلتُ في نفسي:

- ألهذه الدرجة يا خلود أنتِ مشتاقة لحسام؟

وبعد الانتهاء من الجنازة التي أصررتُ على حضورها والسير فيها، رغم عدم وجود النساء، فقد كان عليَّ إيصال خلود لعريسها.

عدتُ إلى البيت متناسية حمزة وما حدث معه بعد خروجه من غرفة العمليات، دخلتُ البيت وما إن رأتني أمي بهذا المنظر، حتى بدأت تصرخ من الهلع والخوف، فقد كان منظري مخيفاً جداً، وثيابي مخضبة بالدماء فقالت أمي:

- ماذا جرى؟، لماذا ثيابكِ مليئة بالدماء؟، ويبدو عليكِ الإرهاق.

فانفجرتُ بالبكاء حتى استيقظ كل من في البيت على صوت

بكائي، وهرع يزن ويامن إلى حضني وقالا ببراءة:

- هل مات والدنا؟

وصرخت أم حمزة وبدأت تبكي، انصدمتُ مما حدث ومما قاله الطفلان، فكيف لم أراع ظروف من في البيت؟، يا إلهي! ماذا يحدث لي؟، أين عقلي؟، فمسحتُ دموعي الفاضحة وأخبرتُ الجميع:

- لقد استشهدت خلود.

دبَّ الصمت في المنزل، فقد كان الخبر صادماً للجميع فقالت أمي:

- خلود! ماذا تقولين؟، كيف حدث هذا؟

فقلتُ لها:

- لقد سمعتُ من الذين كانوا متواجدين هناك وقت إصابتها أنها كانت قريبة جداً من السلك، فتم قنصها مباشرةً في الرأس، ووصلت إلى المستشفى وقد فارقت الحياة، وصلت جثة هامدة بلا روح.

الجميع ثار هناك من أجلها، فهي لم ترتكب أي ذنبٍ، ولكن العدو الجبان خاف من قوتها، وادعى أنها تحمل قنابل على خصرها.

فردت أمي بغضب:

- دائماً العدو يبرر جرائمه والعالم يصمت، رحمها الله.. لا تحزني يا نور، فقد حصلت خلود على ما تمنته، ولكن أخبريني ما أخبار حمزة؟

- حمزة، حمزة!

وقمتُ كالمفزوعة وتناولتُ هاتفي لأطمئن على وضعه من الطبيب، فقد شُل تفكيري اليوم، وبعد رنين متواصل رد الطبيب:

- ألو.

- أيوا، معك نور، كيف وضع حمزة؟

وكأن الفرح قرر أن يزورني هذه المرة، فقال الطبيب:

- لقد نجحت العملية التي أجريت له وهو يردد باسمك منذ وقت.

شعرتُ وكأنني أريد أن أرقص، أغني، ولكن حزني على صديقتي خلود أطفأ فرحتي، فحمدتُ الله، وفرحت والدة حمزة بالخبر، وقلتُ:

- أيعقل أن يستيقظ حمزة ولا يجدني بجواره؟

فردت أمي:

- ولكن الوقت متأخر، انتظري طلوع النهار على الأقل يا ابنتي.

- لا يا أمي، لا بد أن أكون قربه.

وصلتُ إلى حمزة بسرعة البرق أخيراً، كان مفتوح العينين، ولأول مرة ألاحظ بريق عينيه، أو أن لهفتي واشتياقي له دفعني لأن أراها جميلة هكذا.

تكلم حمزة بصعوبة وسألني:

- كيف حال الأولاد؟

- الجميع بخير وينتظرون عودتكَ.

ثم عاود السؤال:

- وكيف أم.....

ففهمتُ عليه وأجبته:

- أمك مشتاقةٌ لك، وكثيراً ما تدعو لك، وتقول لك: لقد أطلت الغياب يا حمزة.

فابتسم، وعندما اتضحت الرؤية لديه، لاحظ وجهي الحزين، وثيابي المليئة بالدماء فسألني:

- ما بال ثيابك مخضبة بالدماء؟

فتوترتُ، فقد نسيتُ أن أبدل ملابسي بعد أن هاتفتُ الطبيب، فقلتُ له مختبئةً وراء أحزاني:

- لقد كنتُ أساعد الطبيب في تضميد الجرحى في غرفة الطوارئ، وعندما هاتفوني هرعتُ إليك.

دخل الطبيب علينا، وكانت ملامحه تبشر بالخير، فأخبرني:

- أولا البقاء لله في صديقتكِ.

فتوتر حمزة وبدأ يسعل ويتألم، فصمت الطبيب وناولتُ حمزة كأساً من الماء، حتى هدأ، ثم أخبرنا الطبيب:

- بعد يومين، سيأتي وفد من الأطباء إلى القطاع؛ لإجراء بعض العمليات الصعبة والدقيقة لبعض الجرحى، وسنعرض وضع حمزة عليهم.

شعرتُ بالسعادة وأخذتُ أحضن بحمزة حتى آلمته ثم قلتُ:

- يا رب يكون العلاج على أيديهم، فقد سئمتُ انتظار تحويلات العلاج إلى الخارج ورفضها.

خرج الطبيب بعد أن تمنى الشفاء لحمزة، وخرجتُ خلفه وأخبرته:

- حمزة يعرف أن خلود صديقتي المقربة، ووضعه الصحي لا يسمح أن نخبره بنبأ استشهادها، فهو يعلم كم أنا متعلقة بها.

فرد الطبيب:

- صحيح الحمد الله أنني انتبهتُ لهذا الأمر.

فقلتُ للطبيب:

- حتى أنه سألني لماذا ثيابك هكذا؟، ولهذا لا أريد أن يتعرض لأي انفعال إلى أن يستقر وضعه الصحي.

فسألني الطبيب:

- ماذا كان جوابكِ له؟

قالت: كنتُ أضمد جراح المصابين.

- ربنا يكتب له الشفاء.

مكثتُ بجواره إلى أن غالبه النعاس ونام، وكنتُ أنا أيضاً مرهقةٌ جداً، فاتجهتُ إلى البيت؛ لأستريح وأطمئن على الأولاد، فتح لي الصغار الباب وكانوا لا يزالون مستيقظين، وكانت والدة حمزة تقرأ القرآن بصوتها العذب، وعندما سمعت صوتي توقفت عن القراءة وسألتني:

- كيف حمزة يا نور؟

فقلتُ لها بفرح:

- بحمد الله حمزة بخير، وسوف يأتي وفد طبي لرؤية وضعه.

بعد يومين وصل الوفد الطبي الذي أخبرني عنه الطبيب، وتم عرض حالة حمزة عليهم، وأبدوا رأيهم بضرورة إجراء العملية، ولكنهم صارحوني بوضوح بقول البرفسور الذي سيجري العملية:

- العملية خطيرة جداً؛ لتواجد الرصاصة في منطقة قريبة جداً من القلب، وقد تحدث مضاعفات كثيرة.

كنتُ قلقة جداً، لكن وضع حمزة يفرض المجازفة، من أجل حياة أفضل له، من دون آلام ولا أوجاع، ولعل الحياة تبتسم لنا من جديد.

جاء موعد العملية، وقبل تجهيزه للعمليات كان لدي متسع كبير لأجلس معه وأحادثه، فطلب مني:

- أريد رؤية الأولاد.

في البداية ترددتُ، ولكن مع إصراره المتواصل كان لا بد لي أن أخضع لرغبته، فقلتُ له:

- سأذهب إلى البيت وأحضرهما لك.

فقال لي:

- لا داعي للذهاب إلى البيت، هاتفي خلود وهي تحضرهما.

فاضطرب قلبي حزناً وألماً وقلتُ له:

- خلود مشغولة بمرض أمها، سأذهب أنا، فلا يزال هناك متسع من الوقت قبل دخولك العملية.

في تلك الفترة، كان يخضع لبعض الفحوصات والتحاليل اللازمة قبل دخول العمليات، واتجهتُ أنا إلى البيت، فكان يزن ويامن يتشاجران على من اشتاق أكثر لوالده، فقلتُ لهما:

- الآن، سنرى من اشتاق أكثر لوالده.

فنظر الصغيران إلى بعضهما البعض وقالا:

- كيف؟

فقلتُ لهما بمرح الطفولة:

- سنذهب لزيارته الآن، الآن.

قفز الطفلان من شدة الفرح، وهرولا لاستبدال ثيابهما، رأيتُ

اللهفة والشوق في عيونهما، فتذكرتُ والدي وانهمرت دموعي دون أن أشعر بها، خرج الطفلان من الغرفة وقفزا إلى حضني وقالا لي:

- هيا، لقد انتهينا يا ماما.

تناسيتُ دموعي عندما نطقا بماما، فضممتهما إلى صدري بكل حنان، وقبل أن نغادر البيت نبهتهما قائلةً:

- لا نريد الحديث طويلاً مع بابا، فهو لا يزال متعباً.

وقبل أن نخرج من البيت، بدأ أخي الصغير عبود يبكي ويقول:

- وأنا أريد أن أرى بابا حمزة.

فلم يكن باستطاعتي أن أرفض طلبه، فبدلتُ له ثيابه على عجل، واقترحتُ على أم حمزة أن تأتي هي أيضاً، فحمزة سيقوى عندما يراها معنا، وبالفعل خرجنا جميعنا، وبقيت دينا وأمي في البيت.

وصلنا أخيراً إلى حمزة، وكان قد لبس ثوب العمليات وتم تجهيزه تقريباً، فأحاط الصغار الثلاثة به، فأخذ يقبلهم بلهفة، ثم قال:

- أين نور؟

في هذه اللحظة، دخلتُ عليه أُسند والدته على كتفي، وما إن رأى أمه، حتى أبدى ابتسامة ساحرة على وجهه، وكاد يقفز من

سريره، وكأنه لم يعد يشعر بأي ألمٍ أو وجع.

إنها الأم، رؤيتها تنسيك هموم الدنيا وما فيها، قبلت أم حمزة ابنها واستمرت بالدعاء له بأن يتم الله شفاءه ويعود إلينا سالماً معافى.

هكذا هي الأم، لا تكف عن الدعاء لأبنائها، فدعواتها الجميلة تخرج من القلب صادقة لا شك فيها.

كان لا بد لنا أن نغادر من أجل استعداد حمزة لدخول غرفة العمليات، فكان آخر شيء يسمعه دعوات أمه الغالية، وها نحن الآن ننتظر خروج حمزة من غرفة العمليات سليماً معافى، من أجل أن تعود إلينا الحياة من جديد.

الفصل الثالث

غفوةٌ وحُلمٌ

«اليوم أكتب حلم العودة، وغداً سأكتب بأننا عُدنا»

عاد إلينا حمزة وعادت حياتنا جميلة مثلما كانت، فقد تكللت عمليته بالنجاح، وخرج ليمارس حياته مثلما كان يمارسها، وبالطبع عاد للعمل قرب الحدود، وكان يعود من عمله مرهقاً، ويأخذ قسطاً من الراحة يومياً، نظراً لانشغاله طوال اليوم بإنقاذ الجرحى والمصابين.

ودارت الأيام تلو الأيام، وكانت مسيرات العودة لا تزال مستمرة، دون انقطاع ومع استمرارها، ازدادت قوة أهل غزة للمطالبة بحقوقهم، من أجل تحقيق حلم العودة إلى الديار، فقرروا الدخول ولو بالقوة إلى الأراضي المحتلة القريبة من الحدود، واجتياز السلك الشائك، وإقامة خيام هناك.

فجاء حمزة وأخبرني:

- هيا يا نور، فحلم العودة بات قريباً.

فتعجبتُ وقلتُ له:

- لم أفهم ماذا تقصد؟

فرد حمزة بحماس:

- يا نور، الجميع يتجهز ويستعد من أجل يوم الزحف المليوني الكبير باتجاه الحدود، ولا بد أن نخرج مع الجميع.

فسألته عن وضعنا:

- وهل سنخرج جميعاً؟

- بالطبع يا نور، فلا بد أن يكون الزحف مليئاً بالأطفال والنساء، من أجل الضغط على العدو ليتراجع.

تحمستُ كثيراً لهذا القرار، وأخذتُ أُجهز الأوراق الضرورية والثبوتية وكل ما يلزمنا في هذا المسير، فتركني حمزة في معمعتي، وذهب ليرى ردة فعل والدته بعد أن سمعت الخبر عبر مآذن المساجد وشاشات التلفاز.

دخل حمزة إلى غرفة والدته، فوجدها تقلب الأوراق برفقة أمي، تلك الأوراق التي حصلت عليها من أمها قبل أن ترحل، فنادت على حمزة حينما لمحته يطل عليها من طرف الباب، وقالت له بصوت يتقافز فرحاً:

- انظر يا حمزة، هذه أوراق بلدتنا هربيا.

كانت تلك الأوراق هي نفسها التي تخرجها والدته وتريها لنا، مع كل ذكرى تمر ليوم النكبة، ذلك اليوم الذي ترك فيه أجدادنا أراضيهم وديارهم هرباً من الموت والحرب والمجازر، التي ارتكبت بحق الكثيرين منهم، لكنهم لم يكونوا يعلموا بأنهم سيتركون بلادهم كل تلك السنين.

ضمت والدة حمزة ابنها إلى صدرها وقالت:

- الحمد لله يا حمزة أنني سأموت في البلاد التي كان فيها

مسقط رأسي.

فضغط حمزة على ساعدي أمه وقال:

- بإذن الله ستعيشين يا أمي وتتمتعين في خيرات البلاد التي حفظتها من كثرة ما رويتِ لي عنها، أريد أن تحدثيني عن البلاد هناك عن قرب، أريد أن أرى شجرة الزيتون التي زرعتيها أنتِ بمساعدة والدكِ عندما كنتِ صغيرة لا تتجاوزين الأربع سنوات من عمركِ.

قالت أم حمزة بلهفة:

- إن شاء الله يا حمزة.

ثم أراد حمزة أن يمازح أمه فسألها:

- هل جهزتِ كل شيء؟، لا تتركي شيئاً هنا، ثم أين المفتاح التي حافظتي عليه كل تلك السنين؟

فتبسمت أم حمزة وضربت حمزة على كتفه وقالت:

- اصمت يا ولد، مفتاح العودة معلق في رقبتي، ومن المستحيل أن أضيعه.

فضحك حمزة حتى كاد يُغمى عليه من كثرة الضحك، فدخلتُ عليهما بعدما سمعتُ صوت ضحكاتهما، وتبسمتُ لهما وقد كان وجه أم حمزة يشع نوراً، وكأنها عادت عروسٌ جميلة في ليلة زفافها، فقد كانت السعادة تغمرها من رأسها حتى أخمص قدميها، فتنحنحتُ

حتى انتبه الجميع على وجودي، فناداني حمزة:

- تعالي يا نور وانظري، أمي لا تعلم أين وضعت مفتاح العودة.

فابتسمت والدته وقالت:

- يا ولد يا حمزة، أنا من سيدلكم على الطريق إلى هربيا.

حتى ضحكنا جميعاً من أعماق قلوبنا، فلا تعلم أم حمزة بأن الطرق قد تغيرت، وأن هربيا أصبحت عمائر ومستعمرات ضخمة.

ثم قال لي حمزة:

- هل انتهيتِ من تجهيز كل الأغراض يا نور؟، فنحن سنخرج في الصباح الباكر مع الحافلات التي ستنطلق باتجاه الحدود.

فطمأنته قائلةً:

- كل شيء جاهز، لا تقلق.

- أين الأولاد؟

فتبسمتُ وقلتُ له:

- اذهب وانظر إليهم، إنهم فرحين جداً، أحضروا الجلابية والطاقية؛ ليرتدوها غداً، حتى أنهم لا يريدون النوم.

فتساءلت أمي:

- وأين دينا؟

فأخبرتُها:

- تركتها تحاول أن تُخيط ثوبكِ المطرز، الذي أصبح صغيراً عليكِ؛ ليصبح مناسباً لها وترتديه في الغد.

فقالت أمي:

- يا حبيبتي يا دينا.

انتهينا من ترتيب كل ما يلزمنا، وذهب الجميع للنوم من أجل الاستيقاظ باكراً، وأظن أن لا أحد منا سينام، فكلٌ سيسرح في خياله الخاص؛ ليتصور ويرى البلاد في مخيلته الصغيرة، فالجميع سمع عنها من حكايات والدة حمزة التي كانت ترويها لنا مع كل عشاءٍ يجمعنا، لكن لا أحد يعرفها.

وحمدتُ الله بأنني وحمزة من نفس البلدة، حيث هناك رائحة أجدادنا، وذكريات أبي التي لطالما حدثني عنها، وعن تلك الأرض التي تركها أباه رُغماً عنه، فما ورث منها سوى الذكريات الجميلة وحرفة الزراعة.

أما أنا، فقد كانت الأفكار تراودني وأتساءل:

- يا ترى، ماذا سيحدث غداً؟

كانت ليلة مليئة بالأحلام الوردية الجميلة، فقد استيقظنا جميعاً على صوت المساجد، وهي تصدح بصوت عالٍ وتنشد للبلاد والعودة للأرض، بدأنا بتجهيز أنفسنا حتى ننطلق، فسمعنا صوت

بائع الكعك ينادي بين الأزقة، فأبى يزن إلا أن يخرج ويشتري منه فقلتُ له:

- اذهب واشتري لنا جميعاً، لنأخذه معنا في الطريق.

وتجهز كلٌّ منا وكأنه العيد قد زارنا اليوم، ولبست والدة حمزة ثوبها الفلاحي المطرز، وعلقت مفتاح العودة في عنقها الطويل، فهي على يقين بأنها ستجد الباب الذي سيفتح بهذا المفتاح، ولا تعلم بأن البيوت الصغيرة التي تركها أجدادنا قد هُدمت وأصبح مكانها مبانٍ أخرى.

وقبل أن نهمَّ ونستعد للخروج، لاحظ عليَّ حمزة بعض التوتر والقلق، فقال لي:

- ما بكِ يا نور؟

فقلتُ له:

- لا أعرف هناك خوفٌ يراودني، وأخشى أن يحدث مكروه لأحد فينا هناك، أو يبدأ العدو بإطلاق رشقات الغضب علينا.

- لا تقلقي يا نور، فسوف تخرج معنا مجموعة كبيرة من الصحفيين والإعلاميين؛ لتصور هذا اليوم التاريخي، وسوف ينفضح العدو إن حاول فعل أي جريمة بحقنا.

وقبل أن نخرج من البيت، أخذ كلٌّ منا ينظر إلى جدرانه، غرفه والذكريات الجميلة التي كانت فيه، فنظرتُ خلسةً إلى المكان الذي

كان يجلس فيه والدي، ذلك المكان الذي كنا نجتمع فيه كثيراً ونشعر بالدفء بقربه، فدمعت عيناي ولمحتُ صورةً له كانت معلقة على الجدار، فهرعتُ وأخذتها ودسستُها في إحدى الحقائب قبل أن يحملها حمزة، ونتجه إلى الحافلات.

توقفت أم حمزة عن السير فجأة وقالت:

- لماذا لا نبيع هذا البيت لأحد الغزيين الماكثين هنا قبل أن نرحل؟، فلم يعد لنا حاجة به؟

فنطرتُ أنا وحمزة لبعضنا البعض مندهشين، ثم قال لها حمزة:

- هيا يا أمي، بعد أن نصل إلى هناك، ونطمئن بأن لنا مكان أعود أنا وأبيع البيت.

تماسكتُ؛ لكي لا أضحك من كلام حمزة، ما أجملك يا حمزة وما أطيب قلبك! كم أنت رحيم بوالدتك، كطفلةٍ صغيرة بين يديك أراها.

صعدنا إلى الحافلات، وبات الحُلم قريبا أن يصبح حقيقة، هل حقاً سنعود؟، أم هذه أضحوكة نيسان جاءت متأخرة.

بدأت الحافلات تسير بنا، وبدأت أناشيد الكبار تغرد من أفواههم التي سقطت منها نواجذهم مع مرور تلك السنين.

كنتُ أجلس مقابل مقعد أم حمزة بعد أن أصرت على أن تجلس أمي بجانبها، وقد غفت مع سير الحافلة، وأرخت برأسها على

كتف أمي، أخذتُ أنظر إلى الشوارع تارةً وإلى وجهها تارةً أخرى، فوجدتُ وجهها مليئاً بالتجاعيد، وكأن طريق الهجرة عندما كانت صغيرة قد طُبع على وجهها، حتى بات يوضح لنا كم من الطرق والمسافات قطع أجدادنا؛ لكي يهربوا من الموت والحرب، دون أن يعلموا أنهم كلما هربوا وابتعدوا، كلما ابتعدت سنين عودتهم إلى الديار، حتى باتت أكثر من ستين عاماً.

استمرت الطريق واستمر البعض بالغناء، وبعد ساعات قليلة، توقفت الحافلات؛ ليتم الاستعداد للسير على الأقدام، فلم يعد بإمكان الحافلات الدخول أكثر من ذلك.

ساعد حمزة أمه على النزول من الحافلة بعد أن أيقظها بهدوء، وما إن لامست قدماها الرمال حتى شهقت وقالت:

- وكأن هذه الرمال تشبه رمال بلدتنا هربيا.

هو مجرد شعور جاءها تلقائياً منذ أن لامست تلك الرمال قدماها، فقد كانت في تلك الأيام صغيرة ولا تتذكر شيئاً، فقط هو الشوق والحنين ما دفعها لقول هذا.

ثم تساءلت:

- هل يعقل أننا قريبون من بلادنا؟، هل يعقل أن ندخلها، أم هو مجرد حُلم؟

فرد عليها حمزة:

- اصبري يا أمي، فالرحلة الصعبة ستبدأ من هنا.

فحاولت أم حمزة النظر إلى أبعد نقطة تستطيع رؤيتها، فشعرت حقاً أنها قريبة من هربيا، فأرادت أن تطلق زغرودة، إلا أن حمزة قال لها:

- صبرك بالله يا أمي، ليس الآن.

نزل الجميع من الحافلات، وبدأوا برفع الأعلام الفلسطينية وعلامات النصر بأيديهم، ومنهم من رفع مفاتيح العودة وأغصان الزيتون، ومضى الجميع قدماً إلى الأمام، وحمل حمزة أمه على ظهره، أما أنا، فأمسكتُ بيد أمي، وأمسك الصغار بأيديهم الصغيرة ثوبي وثوب أمي؛ لكي لا نفقد بعضنا البعض في هذا الزحام الكبير.

لاحظ الجميع بأن العدو بدأ برشق قنابل الغاز المسيل للدموع باتجاهنا، فقد كان غاضباً مما يحدث، وكانت عدسات الكاميرات تصور الأحداث بدقة، البعض رفع أطفاله الصغار على كتفه، والبعض الآخر رفع والده الكبير في السن على ظهره كما فعل حمزة، وكان بعض الشباب يحملون بعضهم البعض ويهتفون ويلوحون بإشارات النصر بأيديهم.

كان المنظر يشبه أيام الهجرة من البلاد، لكن الفرق هنا بأننا كنا عائدون مكللين بالنصر، كانت وجوه الجميع تشع نوراً وابتهاجاً

بهذا النصر، الذي حققوه على ذلك العدو المغتصب.

وبعد ساعات ذهبتُ لأوقظه، فقد طالت غفوته هذه المرة، فلاحظتُ أنه يبتسم وهو نائم، حاولتُ إيقاظه مراراً، حتى استيقظ أخيراً، والبسمة تكسو ملامح وجهه فقلتُ له:

- ما بك يا حمزة؟

فروى لي ذلك الحُلم الجميل، بعد أن استيقظ أخيراً من غفوته، ولو كنتُ أعلم أنه يحلم ويخطط لطريق العودة لما أيقظته، ثم قلتُ له:

- حمزة عُد ونم قليلاً؛ لأسألك عندما تستيقظ:

«هل سنعود حقاً، ونرى البلاد»؟

ويبقى السؤال: هل سيصبح هذا الحلم حقيقة، ونكتب يوماً ما بأننا عُدنا حقاً؟

انتهت

مكتبة .. سر من قرأ

telegram @soramnqraa

حلم العودة

نـزل الجميـع مـن الحافـلات، وبـدأوا برفـع الأعـلام الفلسـطينية وعلامـات النصـر بأيديهـم، ومنهـم مـن رفـع مفاتيـح العـودة وأغصـان الزيتـون، ومضـى الجميـع قدمـاً إلى الأمـام، وحمـل حمـزة أمـه علـى ظهـره، أمـا أنـا، فأمسـكتُ بيـد أمـي، وأمسـك الصغـار بأيديهـم الصغيرة ثوبي وثوب أمـي؛ لكي لا نفقد بعضنـا البعض في هذا الزحام الكبير.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
سمير منصور
للطباعة والنشر والتوزيع
غزة - فلسطين - شارع الوحدة ت: ٢٨٢٥٦٨٨
شارع الثلاثيني: ٢٨٢٤١٥٢
جوال: ٠٥٩٩٧٣٢٤١٢